فاروق جويدة

ليس للحب أوان

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلي ت: ٣٥٤٢٠٧٩
المكتبة { ١ ش كامل صدقي الفجالة ت: ٥٩٠٢١٠٧
٢ ش كامل صدقي الفجالة ت: ٥٩١٧٩٥٩

شهداء الزمن الرديء

قالت : أراك دائما تلعن الزمن الذى نعيش فيه .. والزمن غير مسئول عن خطايا البشر .. إنك تحاول أن تهدم بيتاً على رءوس سكانه.. ماذنب البيت إذا كان سكانه ينقصهم الشرف والأمانة والخلق؟.

ما ذنب الجدران الجميلة ، واللوحات المعبرة والحديقة الخضراء أن تتحول إلى أنقاض ، لأن من عاشوا فيها كانوا لصوصاً وسفهاء وقطاع طرق ؟ إنها ليست مسئولية الزمن ولكنها مسئولية البشر . أرجوك لاتلعن الزمن مرة أخرى لأننا نصنع زماننا .. ولأن الإنسان هو الذى يرتقى بزمانه ويضعه بين النجوم أو يسقط بزمانه فى القاع .

إنك تلقى مسئولية الخلل الذى أصاب الناس على عاتق الزمن رغم أنه برىء من خطاياهم وأخطائهم .

إذا ألقى الناس فى ماء البحيرة الصافى النظيف صناديق القمامة هل نلوم ماء البحيرة أم نعاقب من أفسدوه ؟ الناس أفسدوا زمانهم ..

قلت : أنا لا ألوم الزمن ولا ألعن أيامه كما يتصور البعض ، فأنا لست ساخطاً عليه .. ولست كارهاً له ، لأننى أدرك عن يقين أنه برىء منا ومن أفعالنا .

ولكن الزمن عندى رمز للبشر الذين عاشوا فيه ، فلكل زمان رجاله إذا كانوا كباراً كبر الزمان بهم .. وإذا كانوا صغاراً صغر الزمان بهم ..

لابد أن يكون هناك فرق كبير فى أعماقى بين أن أجد نفسى فى مسجد ، أو أجد نفسى فى حانة .. لأن الأماكن تلقى ظلالها على سكانها .

من يذهب إلى المسجد لابد أن يتطهر لأنه سيؤدى الصلاة .. ومن يذهب إلى الحانة يعرف أنه يتجه إلى المعصية .. وشتان بين الصلاة والمعصية .. وهذا هو الفرق بين زمان يعلمنا الفضيلة وآخر يدفعنا دفعاً إلى الرذيلة ، فالأماكن واحدة : أرضاً وسماء ، ولكن طهارتها تختلف .. والناس جميعهم بشر ، ولكن سلوكياتهم تجعل منهم وحوشاً أو ملائكة.. كذلك الزمان يمكن أن يكون نقياً بنا أو فاسداً بأفعالنا .

وأنا لا أستطيع أن أتواءم مع زمان امتهن كل القيم .. واستباح

كل الفضائل ، فأصبح اللصوص فوق الرءوس .. والشرفاء تحت الأقدام. لا أستطيع أن أتصالح مع زمان يعلى السفهاء ويسقط أبناء الأصول .. ولا أقصد بأبناء الأصول هنا طبقة أو مركزاً أو مالاً .. ولكن أبناء الأصول عندى هم أصحاب الخلق . لأن الله تعالى حينما أراد أن يصف نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام لم يصف نسبه أو حسبه أو ماله .. ولكنه قال تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

فليس فى الإنسان أعظم من أخلاقه .. وإذا خسر الإنسان أخلاقه فقد خسر أعظم ما فى البشر .

قالت : وإلى متى سنظل نلعن الزمن وما فيه .. الأشياء تتراجع والملايين يسقطون كل يوم فى مستنقع الزمن الردىء ، فأين سيكون طريق النجاة ؟ .

قلت : حينما تشتد الرياح ويرتفع موج البحر ويظلم الليل ويسقط الجليد ، لابد أن تبحث الطيور عن صخرة أو شجرة تأويها من الطوفان .. وهى تفعل هذا بإحساسها ودون أن يوجهها أحد .. كذلك يفعل الإنسان النقى حينما تتساقط القيم حوله .. يحاول أن يظل إنساناً ويرتقى بنفسه ولو سقط الكل حوله .. يحاول أن يكون مترفعاً أميناً مخلصاً حتى ولو كان كل شىء حوله بعيداً عن ذلك .. .

إننى أعلم أنها سباحة ضد التيار ، فليس هناك أصعب من أن

يعيش الإنسان فى غير زمانه .. ولكن هذا هو قدر الذين يرفضون أن يجرفهم التيار .. ويكفى فى البداية أن تنقذ نفسك فترى الحق حقاً ولو ضللوك .. وترى الليل ليلاً ولو خدعوك ، وترى الفضيلة فضيلة ولو زيفوا كل شىء .. ويتجمع الرافضون للزمن الردىء .. ويصنعون فريقاً.. ويصنع الفريق جماعة .. وتصنع الجماعة وطناً .. ويصنع الوطن أمة .. ومنهم يبدأ الخلاص . مشكلة الشرفاء فى كل زمان أنه سلبيون.

قالت : هل أنت متأكد تماماً أنك تعيش على الأرض ؟

قلت : أعيش مع الناس .. ولكننى مازلت أحلم ..

قالت : أنت تعيش حلماً لا يتحقق ..

قلت : حتى أنت تبخلين علينا بالأحلام .. يا سيدتى إن حلمى هو الشىء الوحيد الذى مازلت أجد لديه الأمان فى هذا الزمن الردىء . وحرام أن يسقط حلمى .

❄ ❄ ❄

أبرياء .. ولكن غرباء

قالت : لماذا فقد الإنسان براءته ؟ .. لقد أصبحت البراءة طيفاً غريباً فى حياة الناس .. حتى الطفولة ذلك العمر الجميل فقد كثيراً من صفاته ، وكان أهمها البراءة .. كانت ضحكة الأطفال تشع كالضوء وتنساب كالصباح البرىء .. وتغيرت الملامح وتبدلت الوجوه وغابت الضحكات وأصبحت البراءة فى رأى بعض الناس نوعاً من السذاجة وعدم الخبرة وقلة التجربة . وأصبح الإنسان البرىء هو الإنسان السطحى عديم اخبرة .

قلت : البراءة إحساس يذكرنى بزهرة جميلة لم تستطع أن تقاوم رياح الزمن وعواصف الأيام فسقطت وداستها الأقدام .. أصبح من الصعب أن تحافظ على براءتك وأنت تعيش وسط غابة من البشر لاتدرى ماذا يخبئون لك ، وخاصة إذا رفضت أن تشارك فى هذه اللعبة

الضخمة التى يعيشها إنسان هذا العصر ، وقد تخلى عن كل القيم فأصبح يمارس كل ألوان السفه والانحراف والتحلل .. لم يعد يفرق بين الحلال والحرام .. ولبن الأطفال والمخدرات .. والدواء واللحوم الفاسدة .. والعطور والغازات السامة .. إنه يفعل كل شيء من أجل المال .. يبيع عمره وضميره وحياته من أجل بضعة دولارات تضاف إلى حسابه ، ولو كان ذلك على حساب آلاف الضحايا الأبرياء ..

فكيف تعيش البراءة فى هذا الجو ؟ .. وفى أى مكان تختفى وحولها ألوف القراصنة ومئات الجلادين وملايين الوحوش الآدمية ؟ .

قالت : إذا كان الكبار قد فقدوا براءتهم .. فماذا حدث للأطفال؟.

قلت : لقد انتقلت لهم عدوى الكبار ..

يكفى أن يجلس الطفل أمام التليفزيون ويشاهد الفيديو ليرى مشاهد القتل والدم والجنس والمخدرات والخيانة والمؤامرات .. لم يبق شيء لم يعرفه الأطفال .. اختصرنا لهم الطريق .. فالأشياء التى كان ينبغى أن يعرفوها وهم شباب عرفوها وعيونهم لم تتفتح بعد .. ومارسوها ، فلم يعودوا أطفالاً .. ولم يعودوا أبرياء .. إن الحزن يملؤنى كلما شاهدت طفلاً أو طفلة وقد سقط فى مستنقع الشم والمخدرات .. فمن الذى انتهك براءته وألقى به فى الطوفان ؟ إنه تاجر سفيه ورفيق سوء قاتل .. وأسرة لا تحافظ على وليدها .

قالت : معنى هذا أن نعتزل الحياة ولا نشاهد التليفزيون ولا نذهب إلى السينما .

قلت : لا أقول هذا أبداً .. ولكننى أحاول أن أصل إلى أسباب المشكلة لأننا جميعاً شركاء فيها .. إن الطفل يعيش الآن فى ظل حضارة لا تعرف الرحمة .. ولا تعرف حدود الأشياء .. إنها مثل الدبابة التى تدوس كل الأشياء دون أن تفرق بين المبانى والبشر ..

والأطفال لابد أن يشعروا أنهم أطفال .. ولابد أن يكون لكل عمر تجاريه .. فلن نجد طفلا أستاذاً فى جامعة .. ولن نجد أستاذاً فى جامعة فى دار حضانة .. ومن الخطأ أن يعيش الأطفال عمراً غير أعمارهم .

قالت : ولكن هذه أساليب العصر .. إننى أجلس مع زوجى وأبنائى ونشاهد فيلماً عنيفاً صارخاً لأننى أفضل أن يرى أبنائى كل شىء فى بيتى ؛ لأن المعرفة أفضل الطرق للحماية من الانحراف ..

قلت : فى الدول التى نسميها الدول المنحلة لافتة توضع على دور السينما مكتوب عليها « للكبار فقط » وممنوع لأقل من ١٦ سنة ، وموانع وعقبات كثيرة .. فهل يعقل أن تسمح أم لأبنائها بذلك فى البيت ، الأطفال فى أوروبا ينامون فى الثامنة ، ولهم حياتهم المستقلة تماماً .. وما يشاهده الآباء لا يراه الأبناء .. ولكننا لانضع حدوداً عندنا ..

قالت : هذا هو إيقاع العصر .

قلت : إيقاع فاسد ومختل ..

قالت : هذا نوع من المعرفة ..

قلت : معرفة فاسدة .

قالت : كل هذا يدخل فى نطاق المعرفة .. وهى حق للجميع أطفالاً وكباراً .

قلت : هناك نوع من المعارف الضارة .. وهناك المعارف الصحية مثل البكتريا .. بعضها مفيد .. وبعضها قاتل ..

قالت : هذا تخلف ..

قلت : بمقاييس تفكيرك أنا متخلف .. وبمقاييس الإنسانية .. أنت امرأة شاذة .

قالت : أطفال هذا العصر أفضل الأطفال حظا فى التاريخ ، لأن حجم معارفهم فوق ما يتصور البشر .

قلت : إنهم أتعس الأجيال ، صدقينى ، لأن لهم أمهات مثلك

قالت : لم تجب عن سؤالى .. كيف نعيد للزمان براءته المفقودة؟.

قلت : حينما نتخلص من أمثالك .. سيعود الزمان بريئاً كما كان يوماً ..

غنى النفس ..

قالت : هل تذكر شيئاً قديماً كنا نسميه يوماً القناعة ؟ . كانت القناعة شجرة عريقة تظللنا وتمنحنا الأمان .. كنت ترى الرجل بسيطا في ماله وأحواله ولكنك تجده شامخاً مترفعاً قنوعاً .. كنت تشعر أنه يملك كل شيء وهو يجلس بين أبنائه يعلمهم دروساً في الحكمة والسلوك والأخلاق . وكانت هذه الأنواع من البشر تعطى الحياة جلالا .. وتعطى الأشياء قيمة .

ولكن أشجار القناعة اختفت وحلت مكانها أعشاب أخرى تسكنها الخفافيش .. ما الذى جعل الأرض التى أنبتت القناعة تنبت الجشع .. ومن الذى اقتلع أشجار الرضا وغرس مكانها حشائش السخط

الناس في الشوارع يلهثون .. ولا تدرى على أى شيء يلهثون.. الكل متعجل .. والكل متوتر .. والكل ساخط .. والكل غير قانع بما عنده ..

قلت : القناعة لا تنبت إلا بين الضمائر الحية .. ولأن ضمائر الناس ماتت وقرأنا نعيها فى جميع الصحف القومية والحزبية أخذت القناعة أشياءها ورحلت ..

القناعة لا تعيش غريبة بين الناس .. إنها ترفض أن تتسكع فى الشوارع بلا مأوى ، لابد أن تشعر بالدفء بين القلوب .. تخلص كثيراً لمن أحبها وتهرب من كل إنسان يجهل قدرها .

والقناعة تعكس نوعا من التوازن فى أعماق الإنسان .. لأن الله تعالى قسم الأشياء والحظوظ بين الناس .. أعطانى شيئا .. وأعطى الآخرين شيئا .. والمهم أن يكون كل إنسان قانعا بما عنده . فالصحة قد لا تجتمع مع المال .. والأبناء قد لا يجتمعون مع الحظ .. والشهرة قد تحمل بعض الهموم .. والنجاح قد يثير بعض الحاقدين .. المهم أن يدرك الإنسان أن نعمة الله تشمله وأنه من الشاكرين .

لن يملك الإنسان العالم كله .. ولن يصل إلى كل الأشياء .. وإذا ساعده الحظ .. فقد لايساعده العمر .. ويبقى بين هذا وذاك أن يتحلى بالرضا .

القناعة لا تعنى التكاسل .. أو عدم الرغبة فى المزيد .. ولكن جوهر القناعة هو الإحساس بالغنى .. لقد كنا نسمى القناعة يوما «غنى النفس» ، حيث يشعر الإنسان أنه غنى بنفسه وليس بما يملك .. لأنه يستمد قيمته من ذاته .

قالت : ولكن الناس الآن تنظر لما فى أيدى بعضهم البعض ..

قلت : كلما تراجعت إمكانيات الإنسان الفكرية والوجدانية شغلته ظواهر الأشياء عن بواطنها .. إنه يحاسب الناس كثيراً وينسى أن يحاسب نفسه .. وينظر لما فى أيدى الآخرين وينسى نعم الله عليه.. يحاول أن يلهث وراء كل شىء جديد ، ولايفكر أن يقف لحظات ليتأمل تجارب عمره ، إن الإنسان يريد أن يأخذ من الحياة كل شىء ، ولهذا يبحث عن كل شىء سريع .. الربح السريع .. والأكل السريع .. والاستمتاع السريع ، والحب السريع .. حتى ظهر أخيراً ما يسمى بالحج السريع .. حتى علاقتنا بالله سبحانه وتعالى لم تنج من مرض العصر وهو السرعة .. وأمام معدلات السرعة والرغبة الشديدة فى تحقيق كل شىء لم يعد الإنسان يقنع بأى شىء .

قالت : وما هى نتيجة هذا كله ؟

قلت : رحلت السعادة .. وازدادت هموم البشر فأقاموا العمارات وهجرها الأمن .. وركبوا السيارات وماتت فى قلوبهم الرحمة .. وجمعوا المال ونسوا الطمأنينة .. وأمام هذا كله أخذ الحب أوراقه ورحل

قالت : وما الذى يعيد لنا القناعة ؟

قلت : الحب .. إذا أحب الإنسان شعر بذاته .. وإذا شعر بذاته أدرك قيمة نفسه .. وهذا هو أعلى درجات الغنى .. أن أرى قيمتى فى أعماقى وليس فى يدى .. أن أحب نفسى أولا ؛ لأن الذين يكرهون أنفسهم غير قادرين على حب الآخرين .

❄ ❄ ❄

هل الذكرى .. خيانة ؟ !

قالت : كان فى حياتى يوماً رجل أحببته من كل قلبى .. ثم فرقت الأيام بيننا .. والغريب أنه لم يكن مسئولا عن النهاية .. وكنت أنا أيضاً بريئة منها ، ومضى كل منا فى طريق .. تزوج هو وعاش حياته ولم أره منذ افترقنا .. وتزوجت أنا وأصبح الآن عندى أبناء كبار وزوج أقدره وأحبه .. ولم أحاول يوماً أن أسأل عن الرجل الذى أحببته فى أول حياتى ، وخاصة أن زوجى رجل كريم الأخلاق فى سلوكه وفضائله ، ولكننى أبتسم أحياناً فى خيالى .. وأنظر إلى عيون ابنتى العروس وابنى الشاب وألمح الشعيرات البيض فى رأسى .. وأعود أسأل: لماذا تطوف فى خيالنا أحياناً تلك الأشياء التى نسيناها .. وهل من حق الإنسان أن يذكر شيئاً مضى عنه واستراح ؟

إن ضميرى أحياناً يؤنبنى ، فليس من حقى أن أذكر هذا

الإنسـان.. كمـا أن حـياتى مليئـة بزوجى وأبنائى وأنا سعيـدة بهم .. ومعهم .. والزمان مضى .. والعمر فى خريفه .. لماذا نذكر ماضينا رغم أننا لسنا فى حاجة إليه .. ولن نفيد منه شيئا .. ثم أليست هذه خيانة؟

قلت : من الظلم أن أطلب من الناس أن يكونوا مثل أشرطة الفيديو بحيث نمسح الشريط تماماً ونسجل عليه مادة أخرى .. وقصة جديدة ، ولا يبقى من القديم أى شيء .. إذا كان هذا يحدث فى دنيا الآلات والمعدات ، فلن يحدث أبدا فى دنيا البشر .. لا يستطيع الإنسان أن يمسك سكينا ويقطع بها كل الخيوط التى تربطه بالماضى .

أنت إنسانة أخلصت لزوجك كل هذا العمر وتحبين أبناءك ، ولم تشاهدى هذا الرجل الذى طرق قلبك يوماً وسكن فيه .. ثم مضى عنك ومضيت عنه وأصبح شيئا من ذكريات عمرك القديم .. وأنا لا ألوم إنساناً إذا طاردته ذكرياته فى بعض الأحيان رغما عنه .. ودون قصد منه .. فما أكثر الأمانى التى أجهضتها الأيام ، ولا نستطيع أبدا أن نطويها فى رحلتنا .. وما أكثر الأشياء التى أخذت فى أعماقنا مكانا بعيداً واستراحت فيه .. ولكنها تعود أحياناً مع أغنية رقيقة .. أو رحيل فصل من فصول السنة .. أو محطة قطار .. أو صوت كروان يبكى من بعيد فى ليلة شتاء طويلة .. فالخريف يحمل لى أحزانا لا أجد لها أسبابا ، .. وقدوم الشتاء يشعرنى بالوحدة .. والخوف .. ولا

أعرف لذلك سببا .. ولكنه القلب الذى يحتوى كل هذا العمر بأيامه الجميلة .. وذكرياته الحزينة .. ولا أستطيع أن أقطع قلبى وألقيه بعيداً عن جسدى حتى لا يذكر شيئاً من عمرى .. فاليوم وليد الأمس .. والغد امتداد لهما ، والعمر سلسلة طويلة ممتدة متواصلة ، وعمر الإنسان حصيلة من الأحداث والذكريات والرؤى ، ولا يستطيع أبدا أن يقتطع شيئا منه .. إنه يشبه البيت .. قد يأتى له ساكن جديد .. ولكننا لا نستطيع أبدا أن نسقط من سجل الذكريات من سكنوا البيت قبله ، حتى لو هدمنا البيت كله .. سنجد من يأتى ويطوف حول أطلاله لأن له فيها عمرا .

وذكريات الإنسان ليست خيانة .. لأن الخيانة عمل اختيارى يفعله قاصدا .. ولكن الذكريات تطوف فى أعماقنا رغم إرادتنا .. تذكرنا بها أشيآء صغيرة .. وهذا الرصيد من الذكريات هو الذى يحتوى خبراتنا وتجاربنا ويرشد خطانا ويرتقى بمشاعرنا .

وقد يشعر زوجك بنفس مشاعرك حينما تطوف برأسه ذكريات أيام جميلة عاشها قبلك وهو يسمع أغنية قديمة من أغانى عبدالوهاب .. هناك بعض البشر الذين يتركون فى حياتنا ذكريات طيبة وجميلة ، ومن الصعب أن ننساهم وتتحول مشاعرنا معهم إلى نوع من الإعزاز والتقدير، ولا يستطيع الإنسان أن ينساهم ولو حاول ..

وقد يرى البعض أن ذلك خيانة .. وأنا أرى ذلك نوعاً من الإخلاص للعمر .. وليس فى ذلك خيانة روح أو ضمير .. لأن استرجاع الذكريات حق مشروع للإنسان مادام لا ينعكس على سلوكه وتصرفاته تجاه الآخرين .

إن ذكرياتى حق من حقوقى .. ولعلنا نذكر جميعا قصة الرسول عليه الصلاة والسلام مع السيدة خديجة ، وكيف كان يذكرها بعد رحيلها رغم حبه الشديد لعائشة حتى غضب منها يوما عندما قالت له عن السيدة خديجة ماهى إلا عجوز وعوضك الله خيراً منها ، فغضب عليه الصلاة والسلام وقال لها : والله ما عوضنى خيراً منها . وهذا هو الوفاء .

إن ذكرياتنا تزورنا أحياناً وتلقى علينا ظلالها وتمنحنا بعض الدفء إذا اشتد علينا الصقيع .

* لا أستطيع أن الوم عصفوراً إذا طافت عليه ذكريات عش بناه وشاءت الأقدار ألا يسكنه .. فقد أصبح هذا العش جزءاً عزيزاً من ذكرياته ، ومن الخطأ أن نحاسب العصافير كما نحاسب الكمبيوتر حين ينسف كل برامجه .. هناك أشياء سوف تبقى رغم إرادتنا .. ورغم أنف الكمبيوتر وزمانه القبيح *

❄ ❄ ❄

موسيقى الأقدام

قالت : هل شاهدت مباريات كرة القدم فى كأس العالم ؟ ماهو انطباعك عنها وكيف رأيت اللعب فيها ؟

قلت : أفسد المال اللعب والجد فى حياة البشر ، فلم يعد بيننا ذلك اللاعب الذى يحاول أن يمتع الناس بفنه . إنه يلعب وعينه على بورصة اللاعبين ، وسماسرة النوادى ، وتجار الإعلانات . مثل المطربين فى هذه الأيام ، يغنون من أجل أصحاب شركات الكاسيت من تجار الخردة ، ولهذا يكتب المؤلف كلمات الأغانى فى « المطبخ » ويجلس الملحن فى « الصالة » يدندن الكلمات ، ويقف المطرب فى « البلكونة » يحاول أن يفك الخط ويقرأ الكلام ، ويجلس الثلاث ، ورابعهم تاجر من وكالة البلح أعطاه الله مالاً فأفسد به أذواق أمة ، ويخرج الشريط فى ليلة واحدة ، وينطلق فى السمـاء ، مثل اللعب النارية ، بألوانه

الكاذبة الزائفة ، وسرعان ما يسقط على الأرض لتحتويه حفرة عميقة مثل كل الأكاذيب التى ظهرت فى حياتنا وطواها النسيان . كنت أشعر وأنا أسمع عبدالحليم حافظ أنه يغنى لنفسه أولاً ، ويحاول إمتاع ذاته ، وكان فى أحيان كثيرة يندمج فى الغناء ، حتى تظن أن الرجل تلاشى فى اللحن والكلام والمشاعر ، وكان فريد الأطرش يبكى أحياناً تأثراً بالغناء . وليس معنى ذلك أننى أريد من المطربين الجدد أن يقدموا لنا وصلة من البكاء ، فيكفى بكاؤنا عليهم . ولكننى أريد منهم الصدق ، وهذا شيء لا يشتريه الإنسان ولو ملك أموال الدنيا .

إن نجوم الكرة ، الذين شاهدتهم على شاشة التليفزيون فى كأس العالم ، ينقصهم الصدق ، ولهذا فشلوا فى إمتاع الجماهير بالأداء الجميل والفن الكروى الراقى . عضلات تصارع عضلات ، وأقدام تقتحم وجوهاً ، وأجسام ترتطم بأجسام . وبين هذا كله غاب الأداء الجميل الممتع الذى كنا نراه فى لاعب مثل « بيليه » حينما كان يداعب الكرة بأقدامه ورأسه ، وكأنه عازف بيانو ماهر .

ولهذا كان لاعب الكاميرون الفذ « ميلا » هو أكثر اللاعبين صدقا حينما أحرز هدفه الثانى فى رومانيا ، ووقف يرقص فى الملعب أمام الجماهير وفى لحظة صدق أخرى سجد مجدى عبدالغنى نجم مصر شاكرا الله ، بعد أن أحرز هدف مصر فى هولندا .

وهذه اللحظات النادرة من الصدق تشعرنا أن فى الحياة جوانب ضوء قد تبدو قليلة ولكنها مازالت بيننا .

كان اللاعب فى زمن مضى يلعب من أجل الأداء الراقى الجميل يحاول أن يمتع نفسه لأنه عاشق للكرة ، معه تتمتع الملايين . ولكن الكل ، الآن ، يجرى وراء النقطة ، والترتيب ، والفلوس ؛ لأن النصر يعنى مزيداً من المال ، والمال هو الشبح الذى يطارد حياة الناس فى هذا العصر ، حتى ولو كان على حساب كل الأخلاقيات والقيم . وأنا لا أتصور إنساناً يقدم شيئاً جميلاً وهو نفسه لا يدرك قيمة الجمال .

قالت : ولكن كانت هناك لمحات جمال فى الملاعب لا تستطيع أن تنكرها .

قلت : أعجبنى أداء الألمان ، كنت أشعر فى أدائهم بعظمة هذا الشعب وشموخه ، كانت أقدام اللاعبين وإحساسهم الجميل يذكرنى بموسيقى بيتهوفن العملاق . أداء رشيق ، وبساطة غريبة ، تعكس روح شعب يحب الحياة حتى النخاع ، ويعيشها طولاً وعرضاً ، لعباً وجداً ، ولذلك أعطاها فأعطته .

قالت : وماذا عن الفريق المصرى ؟

قلت : أعاد لنا روحاً جميلة كنا قد افتقدناها زمناً طويلاً ،

شعرت أن كل لاعب يلعب لحساب نفسه ، لديه حافز قوى للعب ، وهذا يذكرنى بالشركة التى أعمل فيها وأشعر أنني صاحبها ، وشركة أخرى أعمل فيها لحساب الآخرين .

لقد نجح الجوهرى فى أن يشعر اللاعبين بأنهم يلعبون لحساب أنفسهم ، فكل لاعب ذهب وفى نيته الاحتراف ، وهذا يعنى أبواباً جديدة للمستقبل ؛ ولهذا لعبوا جميعاً بصدق .

يجب أن تختفى فى حياتنا أساليب القطاع العام الإدارية ، حيث لا صاحب له ولا مالك . لقد لعب الفريق المصرى وكل لاعب فيه يحاول أن يؤكد ذاته أولاً ، ومن خلال تأكيد الذات الفردية تأكدت روح الجماعة.

يخطئ من يتصور أن النفس المحبطة المهزومة يمكن أن تصنع فريق عمل متماسكاً قوياً . كل الأشياء العظيمة تبدأ من ذات الفرد حينما يشعر هو أولاً بعظمة نفسه .

وإذا نظرنا إلى فريق مثل فريق الاتحاد السوفيتى ، الذى خرج مبكراً نجد أن فيه جميع الإمكانيات لكى يتصدر القائمة : أداء وفناً ولياقة ، ولكن كان ينقصه الحافز الفردى . فاللاعبون لن يدخلوا سوق الاحتراف حتى ولو عادوا بكأس العالم ، ونصيب كل واحد منهم ضئيل للغاية إذا قيس بمصروفات مارادونا اليومية . ولهذا فمن المهم أن ترتبط

مصالح الفرد بأحلام وطنه ، أن يشعر أنه شريك فيه ، وأنه صاحب حق في مستقبله ، وأنه سوف يأخذ بقدر ما يعطى ؛ لأن الحديث عن المثاليات يمكن أن يكون نوعاً من السذاجة ، إذا كنت أرى عمرى وجهدى وشبابى وعرقى يتسرب فى جيوب مجموعة من التجار واللصوص والأفاقين .

فى كرة القدم، مثل أى شىء آخر ، فى زماننا الغريب ، اللاعبون يريدون المقابل ، والمقابل بلغة العصر هو الفلوس ، والفلوس طريقها الاحتراف ، والاحتراف يحتاج إلى الجدية ؛ والجدية تحتاج للصدق ، والصدق يحتاج للإيمان ، والإيمان لا يأتى من مجتمعات تسرق عمر الإنسان ، وتعطيه بعض الأغانى الوطنية .

❄ ❄ ❄

الحب وانكسار الإرادة

قالت : أصعب الأشياء على المرأة أن تتلاشى فى رجل تحبه . إن الحب يلغى كل الحدود بيننا ، وأنا أريد أن تظل بيننا هذه الحدود .

إن التلاشى يسقط نظام حكمى ، وأنا حريصة على أن أظل متوجة على عرشى . أرفض أن يمتلكنى رجل حتى لو كنت أنت ، لأننى أفضل أن أعيش سعيدة باستقلال إرادتى ، رافعة أعلام حريتى ، لأنكم معشر الرجال تحبون احتلالنا ، وأنا أريد أن يبقى وطنى مستقلاً .

أنت تريد أن تعلن بيننا الوحدة الكبرى ، لكى تصير أنت السيد والحاكم والمتسلط وأمضى أنا للظل .

تريد أن تلغى حدودى ، فينسى العالم أننى كنت يوماً دولة مستقلة ذات سيادة ، وأننى ألغيت دولتى حينما أحببت ، إننى أرفض هذا الحب الاستعمارى الرهيب ..

قلت : أول ما يفعله الحب فينا أنه يلغى إرادة المحبين لكى تصبح إرادة واحدة . نجد أنفسنا فى شخص آخر . نرى بعينيه ، ونسمع بأذنيه ، ونتحدث بلسانه . نتوحد معه حلماً وكياناً ، فلا نشعر أبداً بأننا شخصان . يكفى أن تتلاقى العيون ، وتتعانق الأيدى ، وتتوحد القلوب ، لكى ندرك أن هناك لغة أخرى غير الكلام ، وهناك نظرات أخرى غير ما تعرفه العيون ، وأن قلوب المحبين تسافر بعيداً إلى آفاق من المشاعر لاتصل إليها قلوب أخرى لم تعرف الحب .

فى الحب ، لا نعرف حدود الأشياء ، لأننا نسير بلا إشارات مرور ، وليست أمامنا نقاط تفتيش ، أو جمارك ، أو قوات أمن لحراسة الحدود .

وحينما يتلاشى إنسان فى آخر ، فإن ذلك يَكون بداية التوحد ، وهى منطقة يصل إليها المحبون بعد عناء ، وسفر طويل ؛ تتجمع الذرات لتصنع كياناً ، وتتجمع المشاعر لتبنى حلماً ، وتتوحد القلوب فتصبح وطناً ..

قالت : ولكن الحب انكسار إرادة ، وأنا لا أطيق أن يكسر أحد ارادتى ، حتى ولو كنت أحبه .

قلت : هناك انكسار إجبارى ، وهناك انكسار اختيارى ، الأول يأتى من خارجنا ، والثانى يأتى من داخلنا .. وأنا حينما أنسى

كبريائى مع من أحب فهذا انكسار اختيارى ، وحينما أعطى بسخاء ، دون أن أطلب المقابل ، فأنا أعطى بكامل رضاى ..

قالت : ولكننا ، أحياناً ، نفتقد إرادتنا فى الحب .

قلت : هناك فرق كبير بين أن نفقد إرادتنا قهراً ، وأن نفقدها اختياراً .

قالت : كثيراً ما نشعر بأننا فقدناها إجباراً أمام تسلط الرجل .

قلت : الرجل المحب لا يتسلط أبداً .

قالت : الحب ليس كله اختياراً ..

قلت : وليس كله إجباراً .

قالت : هو فقدان إرادة .

قلت : هو اتحاد إرادتين ..

قالت : إلغاء إرادة لحساب أخرى .

قلت : إذا كان من طرف واحد ..

قالت : حتى ولو كان من الطرفين . إننى أرفض أن أضيع فى إنسان آخر أو أتلاشى فيه .

قلت : هو أيضاً ، يتلاشى فيك .

قالت : الرجل لا يعترف أبداً بأنه تلاشى فى امرأة يحبها . إنه مثل الثعلب ، ينام وعينه مفتوحة . ولكن المرأة تنسى كل شيء من أجل رجل تحبه ، إنها تنسف آخر الحصون ، ولهذا أرفض الحب الذى يفقدنا الإرادة .

قلت : سأكون حريصاً على استقلال إرادتك ..

قالت : كل الرجال رفعوا راية حقوق المرأة ، وكانوا أول الدعاة لاحتلالها .

قلت : سأشترى لك جهازاً يحذرك كلما ضعفت إرادتك .

قالت : لن أثق فى جهاز إنذار يشتريه لى رجل .

قلت : إنك تتحدثين كثيراً عن إرادتك وحدك ، ونسيت أننى أيضاً فقدت إرادتى معك .

قالت : لم أشعر بأنك فقدت شيئاً على الإطلاق .

قلت : هذه مشكلة حواء دائماً : إنها لا ترى فى المرأة شيئاً غير ملامح وجهها الجميل .

❄ ❄ ❄

حوار مع فتاة متمردة

قالت : لماذا تقف الأجيال القديمة فى وجه الأجيال الجديدة ؟ كل ما يحبه الأبناء يكرهه الآباء ، حتى الأغانى . أنتم تحبون عبدالوهاب القديم ، وعبدالحليم وأم كلثوم ، ونحن نحب فرسان الأغنية الشبابية الراقصة . أنتم تقولون إنهم غربان ، ونحن نرى أنهم غزلان . أليس من حق كل جيل أن يعيش حياته كما يحب ؟ أليس من حق كل جيل أن يختار تجاربه وظروفه ؟ إن الآباء يريدون لنا أن نعيش حياتهم ، ونحن مصممون أن نعيش حياتنا .

ليس من الضرورى أن أقبل يد أبى دليلا على الاحترام ، وليس من الضرورى أن يكون قبول نصائح أمى دليلا على الطاعة ، وليس من الضرورى أن يكون كلام الكبار شيئاً مقدساً لا يقبل الرفض أو النقاش .

إن الأجيال القديمة تحاول أن تفرض وصايتها علينا فى كل شىء ، ونحن نرفض ذلك .

قلت : ليس من حق جيل أن يفرض وصايته على جيل آخر ؛ لأن لكل جيل ظروفه وحياته ومكوناته . ومن حق الأبناء أن يناقشوا الآباء ويختلفوا معهم ، لكن من واجب الأبناء أن يستفيدوا من تجارب آبائهم وأمهاتهم .

لن يجد الابن أرحم عليه من قلب أبيه ، ولن يجد قلباً يحتويه أكبر من قلب أمه . وإذا كان الآباء يقدمون النصائح التى ترفضها الأجيال الجديدة ، فهم فى حقيقة الأمر يقدمون تجارب عمرهم وعصارة فكرهم وحصاد أيامهم . ومن الخطأ أن يتصور الابن أن تجارب أبيه ونصائحه نوع من الوصاية ؛ لأنها أرقى درجات الحب . أو يتخيل الابن أن احترام أبيه نوع من الخضوع ؛ لأنه أعلى درجات الوفاء لمن أعطى العمر والصحة والحياة .

« من حق الأبناء أن يتمردوا ، لكن ليس من حقهم أن يكونوا جاحدين . من حقهم الحوار ، لكن ليس من حقهم الخروج على حدود الأدب والسلوك . »

قالت : ومن الذى يضع حدود الأدب والسلوك ؟ إنهم الآباء ، وهذه وسيلة للضغط علينا .

قلت : الآداب العامة فى الحوار والسلوك لا يختلف عليها أحد ، سواء كانت الأجيال القديمة أم الجديدة . لن يكلفنى الأمر كثيراً إذا حاورت أبى بطريقة مهذبة ، بحيث تبقى تلك المسافة الجميلة التى تضع كل واحد فى مكانته . ليس معنى الحوار أن أخرج على حدود اللياقة ، فأقول مالا ينبغى أن يقال . ليس معنى الخلاف أن أتبجح فى وجه أمى وأناطحها كلمة بكلمة ؛ لأن التى أعطت العمر لها حق الاحترام . وأنا ضد إلغاء الحدود بين الآباء والأمهات وأبنائهم ، بحجة التربية الحديثة؛ لأن الذين روجوا لهذه الأساليب التربوية فى الغرب تراجعوا عنها الآن، واتضح لهم أنها فشلت فى تقديم أجيال متوازنة. ولقد بالغنا فى استخدام أساليب التربية الحديثة فى سلوكياتنا وفى أفلامنا ومسلسلاتنا، كثيراً ما تجد الابن جالساً أمام أبيه وقدمه فى وجهه، فأى تربية هذه ؟! كثيراً ما أسمع حواراً فى أحد الأفلام والابن طائح فى أبيه بكل الكلمات الرديئة ! يجب أن يبقى الأب أباً ، والابن ابناً .كنت أرى أبى قبل أن يدخل المكان الذى أجلس فيه وأشعر بخطواته ، وكان صوته يتدفق فى أعماقى كلما تحدث ، وكنت أراه النموذج والمثل والقدوة. لكن الأجيال الجديدة تجد القدوة ، الآن ، فى لاعبى السيرك ، والأغانى الهابطة ، ومسلسلات التليفزيون التى زادت عقول الناس تخلفاً .

أنا لا أطالب بأن تكون الأجيال صورة من بعضها البعض ، فهذا ضد قوانين الحياة وطبيعة الأشياء .. لكن يجب أن يبقى الأبناء على

تلك الفضائل التى تحلى بها آباؤهم ، فهى التى تعطى الحياة معنى .

إن الحياة الجديدة سقطت شهيدة ظروف صعبة ومناخ موبوء ! فقد تشكلت هذه الأجيال من خلال وسائل الإعلام ، وهذه الأجهزة ارتكبت أكثر الأخطاء فجاجة فى توجيه هذه الأجيال . وهذا هو الفرق بين أجيال صنعها التليفزيون بكل جوانب القبح ، وأجيال أخرى عاشت الحياة يوم أن كانت أكثر إنسانية .

قالت : وهل هذا هو الفرق الوحيد بين الأجيال الجديدة والأجيال القديمة ؟ .

قلت : الظروف اختلفت تماماً بينهما : فى العمر والحياة والتجربة

* * *

ضحايا الزمن البخيل

قالت فتاتى المتمردة : أنتم تعتقدون أن الفرق كبير بيننا وبينكم.. تقولون مثلاً أنكم أكثر أخلاقاً .. ونحن نقول أنكم أكثر جبناً.. عشتم فى السجون وقبلتم .. وسكنتم المعتقلات ورضيتم .. وتسرب العمر منكم واسترحتم .. ولعبت بكم الأكاذيب وصدقتم .. وسرق من سرق ونهب من نهب وأنتم صامتون متفرجون .

تقولون إننا نحب المال .. ومن فى الدنيا لا يحب المال .. ولكن الفرق بيننا وبينكم ..أننا نريد مالاً يسعدنا وأنتم تريدون أرصدة فى البنوك .. فنحن نحب أن نعيش اليوم ..وأنتم تدعون أنكم تنظرون للغد. الأب يضيع عمره كاملاً ليبنى مستقبل أبنائه .. يجمع لهم المال وينسى نفسه .. ويبنى لهم القصور ويعيش هو وسط القبور .. ويجمع

لهم الأموال حتى ولو أصبح من أهل السؤال .. فى أجيالكم تناقضات عجيبة .. نحن أكثر وضوحاً منكم .. وأهدافنا حتى ولو كانت غير مشروعة لا نخفيها على أحد لأننا صادقون مع أنفسنا .

قلت : أنتم ضحايا التضليل والذاكرة المفقودة ..فلم نكن جميعنا جبناء .. فما أكثر الرقاب التى سقطت .. والنفوس التى ضحت .. والأعمار التى أعطت .. رغم أن سيف السجان كان أطول من أشجار النخيل .. وأعنف من عواصف الشتاء ، وأقوى من كل احتمالات البشر.. أجيالنا القديمة أحبت المال ولكنها لم تركع تحت أقدامه .. كانت ترفض أن يمتلكها المال .. فالمال شىء مهم فى حياة الناس ولكن لاينبغى أبداً أن يجعل منه الإنسان صنماً يعبده .

قالت : أريد أن أعيش يومى .. ولا يعنينى ماذا سيكون الغد .

قلت : لايستطيع الإنسان أن يعيش بلا حلم فى الغد .

قالت : الحب مثلاً عندكم آهات وذكريات ودموع على من رحلوا أو سافروا أو هجروا .. أو هو أحلام تفكرون بها وتبنون حولها قصوراً من الرمال .. وبين الأمس وبين الغد يضيع منكم اليوم .. لماذا لا يعيش الإنسان لحظة عمره بكل الصدق والإحساس دون سؤال عن نتيجة .. لماذا يقضى عمره يبكى على الماضى ويولول على الذكريات .. أنا أحب أن أعيش اللحظة حتى ولو ضاعت منى ملامحها واختفت أطيافها ،

يكفى أننى عشتها بكل الصدق .. حبيب ذهب لا أملك أن أعيده .. حبيب سيأتى لا أملك تحديد موعد مجيئه .. حبيب بين يدى أملكه .. وأنا أريد ما أملك .

نحن جيل يفكر فى يومه ..ولدينا إحساس عميق بأن الحياة تجرى بسرعة ولابد أن نجرى معها حتى لا نسقط .. ولهذا تجد أن إيقاع حياتنا سريع فى كل شىء .. فى الحب نعيش اللحظة .. فى الموسيقى نرقص فى جنون .. فى الغناء نريد أغنيــة جديدة كل يوم ، بل كل ساعة.. باختصار شديد نحن جيل يريد أن يفعل كل شىء .. حتى ولو سرق الزمن .

قلت : هذا هو الفرق بين أشياء تبقى وأشياء تزول .. كان الحب يمر بمراحل متنوعة . ولحظات مختلفة حتى يصل إلى حالة من التوحد والانصهار التى يصبح من الصعب أن تكون مجرد لحظة .. كان الحب عندنا رحلة عمر .. وأصبح عندكم محطة قطار .. كان الإنسان يعيش العمر وفياً لذكرى لأن ثمنها كان دماً ودموعاً .. وعندما أصبح الثمن رخيصاً .. رخصت كل الأشياء .. كانت الأغنية تأخذ زمناً فى كتابتها.. وتلحينها وظهورها .. ولهذا كانت تعيش فى وجدان الناس .. كانت الثمار تأخذ وقتها على الأغصان ولهذا كانت أحلى مذاقاً ..

كان الناس يرقصون على الموسيقى الهادئة فتسرى المشاعر فى أعماقهم .. ولكنهم الآن يلهثون وتنقطع أنفاسهم ..

لحظة حب سريعة لايبقى شىء منها .. عمر ضائع ..

أغنية سريعة لا يذكر الإنسان شيئاً منها .. جهد ضائع .

ثمار شجرة مليئة بالهرمونات والكيماويات والسموم .. صحة ضائعة ..

لا أستطيع أن أقول أن الأجيال القديمة كانت أفضل منكم .. ولكن زمانها كان أكثر رحمة من زمانكم ..

قالت : ولكننا أسعد حالاً منكم ..

قلت : بمقاييس من عاشوا الزمن الجميل أنتم مساكين ، من جرب طعم الإحساس العميق لا ترضيه أبداً لحظة عابرة .. ومن تسللت فى أعماقه رائحة الزهر لا يحب الزهور الصناعية ..

أنتم تعيشون زمانكم .. ونحن عشنا زماننا .. والمشكلة أننا نتحاور الآن من « شباكى » قطارين يسير كل منهما فى اتجاه .. ولا نملك أبداً أن نجمعهما فى طريق واحد ..

❄ ❄ ❄

هل من طريق .. للخلاص

قالت فتاتى المتمردة : أنتم شاركتم فى إفساد أجيالنا .. لم تغرسوا فينا الإحساس بقيمة الأشياء فأصبح كل شيء رخيصاً .. إن مباراة كرة القدم حتى ولو انتهت بالهزيمة أهم بمقاييس هذا العصر من حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل .. تتحدثون عن الأخلاق وأنتم لا تمارسونها .. أجيال أخذت كل شيء وأجيال لم تأخذ أى شيء .. لقد أغلقتم أمامنا أبواب المستقبل ..

تقولون : كان سعر كيلو اللحم عشرة قروش .. وكانت البيضة بمليم .. وكانت الأتوبيسات خالية .. والشوارع نظيفة والناس طيبين .. وكانت إنجلترا مديونة لنا .. وكان الجنيه المصرى يشترى جنيهاً من الذهب الخالص ويبقى معك خمسة « تعريفة » .. وكان شارع فؤاد أجمل من الشانزليزيه ، وكانت جامعة القاهرة أعرق من كمبردج ..

وكانت عندنا أوبرا أحرقناها .. وأموال أضعناها .. وأرض بورناها .. ومياه أفسدناها .. وعقول خدرناها ، وقلوب أحرقناها ، ورجال كبار أقصيناهم.. وأقزام صغار رفعناهم ..

أنت تدافع عن أجيال أخطأت ، وأنت لست منهم ، فأنت مثلنا مغلوب على أمرك ، تشارك فى الجريمة ولم تتلوث يداك بدمائها ورغم هذا خرجت فى طوابير المشيعين .. فلماذا تدافع عن جريمة أنت برىء منها .. ؟ .

هل تذكر مسرحية اسمها « مدرسة المشاغبين » مازال التليفزيون حتى الآن يعرضها لنا كواحدة من عيون التراث المسرحى العظيم .. كانت أول درس تعلمنا منه الاستهزاء بأساتذتنا فى المدرسة ، وآبائنا فى البيوت ؟ .

هل تذكر حكايات وقصص القصور الملكية المنهوبة .. كانت أول درس علمنا أن المال السايب يعلم السرقة ، وللأسف الشديد لم يبق شىء أمامنا نسرقه .. هل تذكر قصص السجون والمعتقلات وامتهان آدمية البشر فى المذكرات السياسية والأفلام والمسلسلات .. كانت أول من علمنا أن حقوق الإنسان أكذوبة كبيرة فى الدول النامية ولا ينبغى أن نصدقها أبداً .

وبعد أن أخذتم كل شىء .. تبخلون علينا الآن بأى شىء .. مجانية التعليم يعيدون النظر فيها ، تنتشر مرة أخرى خفافيش الجهل

بين الفقراء من النجوع والقرى والكفور والحوارى ، وتأكل أسراب الجهل من لا يملكون المال .

والفن الهابط الذى ينخر كالسوس فى وجداننا تقولون إننا نحبه.. هل وجدنا أمامنا فناً جميلاً وقاطعناه ؟ هل وجدنا إحساساً صادقاً وهجرناه ؟ .. أنتم تكتبون وتنتجون وتؤلفون .. أنتم أصحاب القرار فى يومنا .. وغدنا .. لأننا لا نملك من أمرنا شيئاً .

تعلمنا فى المدارس والجامعات ولا نجد أمامنا فرصة عمل واحدة.. فضاع منا من ضاع .. وهاجر من هاجر .. وهرب إلى الله من هرب ، وأنتم جالسون على مكاتبكم تقرءون الصحف الحزبية والقومية وتتصفحون الوفيات وتبكون على الزمن الجميل الذى رحل وتلعنون وجوهنا واليوم الذى جئنا فيه لهذه الحياة .

تقولون لنا اذهبوا لتعمير الصحراء وأين تلك الصحراء وأنتم تبيعون لنا مياه النهر .. وضوء النهار ؟ .

اشترى القادرون منكم الشقق لأبنائهم وأغلقوها .. وهناك الملايين الذين يسكنون المقابر .. وبعد أن ملكتم المدن بأبراجها وناطحات السحاب فيها ، انتشرتم كالفئران فى الصحراء وعلى الشواطىء كل واحد يريد أن يشترى استراحة أو عزبة ، ووزعتم التركة عليكم وصادرتم حقوق باقى الورثة وألقيتم بهم فى وادى الأيتام ..

المشكلة أن الأنانية استفحلت فى النفوس وسيطرت على المشاعر فغابت الرحمة وانسحب الحب وسقطت أشجار الشهامة .. إن الطوفان سوف يأخذ الجميع ؛ من سكن المقابر ومن سكن الأبراج .. وسوف يدرك الجميع ولو كانوا فى بروج مشيدة .. والسعادة لا يمكن أن تكون من حق البعض وتهجر بيوت البعض الآخر ، إنها مثل الهواء تحب أن تتسلل فى كل شىء .. ويخطئ من يتصور أن السعادة يمكن أن تكون له وحده.. حينما يتلوث الهواء ويتسمم الجو سوف نموت جميعاً ولن ينجو أحد . إننا نعيش الحياة بما فيها من بشر وكائنات وعلاقات ، والفرد جزء من الكل .. ولا يمكن أن يصلح الجزء والكل فاسد .. تفاحة واحدة فاسدة تفسد الألوف حولها إذا لم نلق بها فى صندوق القمامة .. وما أكثر الذين ينبغى أن نلقى بهم فى صناديق القمامة بعد أن أصابهم العفن .

أسوأ الأشياء يا سيدى أن نتحدث عن أخلاق لا نمارسها .. وفضائل لا نعرفها .. وأنتم تكلمتم كثيراً عن الأخلاق ولم يكن الأمر أكثر من مسرحية هزلية رخيصة أضاعت أجيالاً وأفسدت وطناً ..

قلت : ...

لم أجد عندى ما يقال .. فهل لدى أحد منكم شىء يقوله .. ليته يساعدنى فى الرد على فتاتى المتمردة .. ؟ .

* * *

حكايتان

الزمان تغير .. والقلوب تحجرت .. والنفوس سكنتها الوحشة .. وهربت منها عصافير الرحمة .. وهجرتها أسراب الأمان .. فلم يعد الإنسان إنساناً .

فى الأسبوع الماضى بكت الصحافة الإيطالية حزناً على الفتاة الصغيرة « فانيسا » التى كان من سوء حظها أن تعيش زماننا الكئيب.. زمن الصواريخ العابرة للقارات .. والسيارات .. والرشاشات.. والقنابل الحارقة والغازات السامة .. الزمن الذى صنع كل شىء ونسى أن يصنع لنفسه قلباً .

تقول الحكاية : إن الأب « فاركون » خرج مع ابنته « فانيسا » فى نزهة إلى البحر فى عطلة نهاية الأسبوع ، وداهمت الأب وهو يقود سيارته أزمة قلبية رغم أن عمره لم يتجاوز الثالثة والثلاثين . وفى هذه

اللحظة كانت سيارته تندفع فى نفق مظلم بالقرب من فلورنسا مدينة الفن فى إيطاليا .. وأمهله القدر بضع ثوان كى يوقف سيارته ويهمس فى أذن ابنته أن تعود إلى البيت .. ثم فارق الحياة .. وتركت الطفلة ذات السنوات الست سيارة والدها وجثمانه الملقى فيها وهرعت تبكى على الطريق تحاول أن توقف أحداً تحكى له مأساة أبيها .. ووقفت أمام السيارات المندفعة على الطريق تطلب مساعدتها . مئات السيارات عبرت أمامها ولم يسأل فيها أحد ؟! وأخذت الفتاة تجرى حتى قطعت مسافة كيلو مترين ، وهى تلهث مستنجدة بالسيارات المندفعة فى جنون أمامها ولم يتوقف أحد ، إلى أن لمحها رجل يركب دراجة بخارية فأسرع إلى لجدتها وأبلغ الشرطة .

كانت هذه هى حكاية الطفلة التى هزت قلوب الإيطاليين بعد أن قضوا شهراً كاملاً مع كأس العالم بانتصاراته وهزائمه وأسعار لاعبيه .

قرأت هذه الحكاية وتذكرت حكاية أخرى شهدتها إيطاليا منذ سنوات عديدة .. والفرق بين الحكايتين كبير ..

فى مدينة إيطالية - « أعتقد أنها نابولى » - خرج ذات يوم ضابط إيطالى كى يحارب فى صفوف الجيش ، وكان معه كلبه الوفى الذى اعتاد أن يتبعه كل يوم حتى محطة القطار التى يركب منها ، ثم يعود الكلب إلى البيت .. ويذهب صاحبه إلى عمله .. وكثيراً ما كان يذهب فى ميعاد عودة صاحبه وينتظره على محطة القطار ثم يعودان للبيت معاً .

وذات يوم خرج الضابط .. ولم يعد ، فقد مات فى الحرب ونسيه أهله وجيرانه وأصحابه ورفاقه ، ولم يعد أحد يذكره إلا كلبه الوفى ، فقد كان الكلب يذهب كل يوم إلى محطة القطار فى موعد رجوع صاحبه ويقضى الساعات وهو ينظر فى الوجوه ولا يرى بينهم صديقه الذى سافر ولم يعد ..

ومكث الكلب على ذلك وقتاً طويلاً يكرر الحكاية كل يوم حيث يذهب لانتظار صاحبه .. وتسربت حكاية الكلب الوفى إلى الحى الذى كان الضابط يسكن فيه .. وبدأ الناس يتوافدون كل يوم يشاهدون رحلة الكلب من منزل الضابط إلى محطة القطار ولحظات انتظاره الأليمة.. وهو يحدق فى عيون القادمين والمسافرين لعله يجد بينهم صاحبه .

وشاعت الحكاية فى المدينة كلها .. وتناولتها الصحافة .. وخرجت الأجهزة المحلية تقيم احتفالاً للكلب الوفى .. وصنعوا له طوقاً من الذهب وضعوه فى رقبته وسط احتفال مهيب تكريماً للوفاء .. وصارت حكاية الكلب الوفى تحكى للأطفال لعلهم يتعلمون الوفاء منها.

كانت هذه الحكاية منذ سنوات بعيدة مضت .. وكان ينبغى أن يكون الأطفال الذين شاهدوها أو سمعوا عنها قد تعلموا منها معنى الوفاء بعد أن أصبحوا الآن آباء وأمهات .. ولكن هذا لم يحدث .. ففى الوقت الذى كان الكلب فيه وفياً لصاحبه كانت آلاف السيارات

تندفع بجوار مدينة فلورنسا التى أنجبت « دانتى » .. و « ليوناردو دافنشى »، والفن الخالد العظيم ، بينما كانت تقف طفلة صغيرة تطلب النجدة لإنقاذ والدها من الموت ، ولم تجد ، رغم زحام الناس ..

والشىء المؤكد أن هناك ملايين الأطفال الذين يصرخون فى أعماق الأرض بعضهم يموت جوعاً أو عرياً أو ضياعاً ، وبعضهم يموت تحت سياط الظلم والقهر والطغيان ، فى زمن لبس قبعة الحضارة ، وامتهن براءة الأشياء ، واستباح قدسية البشر ، وارتكب أبشع الجرائم باسم الحضارة .. وباسم الإنسانية المزيفة والإنسان الفاقد للوعى ..

الحضارة التى أتاحت للإنسان أن يمتلك كل شىء .. ونسيت أن تعلمه طريق الرحمة .

❄ ❄ ❄

وعدنا كما كنا .. غرباء

قالت : أنا معك الآن ، ولكننى أشعر أن كلينا غريب عن الآخر .. مسافات شاسعة تفصل بيننا .. تلال من الجليد تسكن أعماقنا .. أين الإحساس الصادق والحنين الصاخب والشوق المتمرد ، كيف هدأت البراكين التى كانت تحطم كل شىء حولها ؟ كيف استكانت القلوب التى فجرت كل هذه المشاعر ؟ .

ما الذى أسكت أغنيات الشوق وألقى فى قلوبنا ظلال الصمت والوحشة ؟ هل كان ما عشناه حباً أو وهماً أم خيالاً ؟ وهل يمكن أن تنتهى كل هذه النيران لتصبح بقايا من رماد ؟ هل يمكن أن تختفى فى لحظة كل أشجار الحديقة وتترك بعدها الأشباح والأطلال والذكرى ؟ .

قلت : ما تشعرين به ، أشعر أنا به أيضاً .. أراك بعيدة جداً

رغم أنه لا شيء يفصلنا .. أشعر ببرودة يديك وسكون عينيك رغم أنك كنت في يوم ، البيت والملاذ والمأوى ..

وقد تسألينني : ما الذى حملنا إلى مناطق الجليد وقد عشنا زماناً احتوانا بالدفء والحياة .. نحن يا سيدتى نتحمل كل شيء لأن «شماعة» القدر لا ينبغى أبداً أن نضع عليها كل خطايانا .. القدر يجيء بنا للحياة .. ويحملنا منها ، ولكننا نختار طريقنا كما نحب .. فالحب الجميل الذى ترعرع بيننا يوماً .. نحن الذين زرعناه ، وكان كل واحد منا حريصاً أن يرويه كل يوم .. وكنا نتنافس في ذلك لأنه كان شيئاً جديداً علينا فشعرنا بقيمته .. وأخذ يكبر بيننا ويتسلل فى أعماقنا وازددنا معه شباباً وتألقاً وازداد بنا قوة وتماسكاً .

وعندما وصلنا إلى قمة الجبل غابت عن عيوننا رحلة الشقاء التى منحناها العمر .. وأصبح الحب شيئاً عادياً .. فقد ملك كل منا الآخر ، أو هكذا تصور .. واعتدنا على الأشياء .. فالإحساس الجميل أصبح شيئاً عادياً .. والمشاعر المجنونة صارت فى بعض الأحيان عبئاً .. وبدأنا نشعر بالملل وقسوة الالتزام .. وازدادت ثقتنا فى أن كل واحد منا لايستطيع الحياة بدون الآخر .. وبدأت الخيوط تتقطع ونحن عنها غافلون .. كنا نضيف شيئاً جديداً كل يوم إلى مشاعرنا .. وأصبحنا الآن نهدم كل يوم شيئاً مما بنيناه ..

وبدأت رحلة التراجع أمام أكذوبة ضخمة اسمها الثقة .. كل واحد منا يوقن بينه وبين نفسه أن الآخر لن يستطيع الحياة بدونه .

كل هذه العوارض تسللت إلى نفوسنا فبدأت الأشواق رحلة التراجع .. وانسحبت عصافير اللهفة تاركة أعشاشها خاوية .. وبدأ كل واحد منا يبحث لنفسه عن مبررات للخروج من دائرة المسئولية ..

ورأيتك تبحثين عن أصدقائك القدامى تحاولين تغيير حياتك لكى نخرج من دائرة الروتين والاعتياد .. وحتى يعود بعضنا لبعض أكثر شوقاً .. وبدأت أبحث عن أصدقاء الشباب أملأ الفراغ الذى تركته بغيابك.

وبدأنا رحلة الفرار ..

فالطيور التى قالت أنها ستعود أكثر شوقاً اعتادت على التسكع فى الطرقات ..

والأشواق التى سافرت وظنت أنها ستعود أكثر إحساساً ، عادت لتجد أمامها ألف ساتر .. وألف حجاب ..

وعندما رجعنا من رحلة البحث عن أنفسنا لم نجد شيئاً مما تركناه.. أصبحت أمامَك وجهاً غريباً ، فقد اعتادت عيونك على وجوه كثيرة غيرى .. ورأيتك شيئاً غريباً فى حياتى بعد أن ازدحمت بعشرات الأصدقاء .

وفى الوقت الذى تصور فيه كل واحد منا أنه امتلك الآخر ، نظرنا فى أيدينا فلم نجد شيئاً غير بقايا عمر جميل .

وحتى الحب الذى ظننا أنه سوف يسكننا إلى الأبد وجدناه يأخذ بقاياه ويرحل .

وجلسنا معاً ننظر إلى أطلال المدينة الجميلة التى بنيناها معاً بيتاً .. بيتاً .. وقد رحلت طيورها وسكنتها رياح الصمت والسكون .. وجلسنا نتساءل : ترى هل أخطأنا حقاً ؟

ولم نجد إجابة عن سؤالنا الحائر ..

وعدنا كما كنا ذات يوم .. غرباء .

* * *

حواء .. التى كانت ..

جاءت تسألنى : أنا طالبة فى كليـة الهندسة .. ويرفض أهلى زواجى من صاحب ورشة أحبه .. هل توافق على زواجنا ؟ .

قلت : ماهى حدود ثقافته ؟ .

قالت : هو يقرأ ويكتب فقط .. لم يتعلم فى مدارس .. إنه «يفك الخط » !

قلت : وعلى أى أساس كان اختيارك ؟ .

قالت : أحببته منذ كنت طالبة فى المرحلة الثانوية .. كان يعمل فى ورشة أسفل بيتنا .. وكبرنا معاً .. كان صبياً عند صاحب الورشة .. ثم اشتراها منه .. واشترى سيارة فاخرة .. وشقة فى نفس الحى ..

وبدأت مظاهر الثـراء تبدو عليـه فى سنوات قليلة .. وعلمت منه أنه يكسب كثيراً من تجارة العملة .. وأنا أحبه لشخصه وليس لماله ..

قلت : وماهى مميزات شخصيته التى جعلتك تتركين المئات من زملاء الدراسة وتحبين صاحب الورشة ؟ .

قالت : كان أول رجل أحسست به فى حياتى .. كما أننى لست طبقية فى سلوكى .. أنا أرى فيه زوجاً مناسباً .. إن والدى موظف بسيط رغم أن شقيقى الأكبر يدرس الطب .. ولى شقيقة تدرس فى كلية الآداب .. وجميعهم يرفضون هذا الزواج .

قلت : هل حاولت أن تتحدثى معه فى شئون الثقافة والحياة ؟ .

قالت : يا سيدى ، هذه رفاهية لا يحتملها هذا العصر .. إننى أحب أن أسمع معه الأغانى الجديدة التى تسمونها هابطة .. وأشعر بسعادة كبيرة وأنا أذهب معه إلى وكالة البلح حيث يشترى بقايا السيارات القديمة . وأرى فيه رجلاً مكافحاً .. وأنا لا أريد رجلاً يرهق عقلى بنظرياته وثقافاته .. أريد إنساناً أشاركه رحلة عمر .. وليس رحلة سفسطة .

قلت : ولكن الزواج ليس فقط طعاماً وشراباً وسكناً وسيارة .. إنه مشاركة وجدانية وعقلية .. وحوار .. وأحلام .. ورحلة عمر .

قالت : سأكون مهندسة بعد عام واحد .. وسوف أجلس مع الآلاف غيرى فى طابور الانتظار حتى يأتى خطاب القوى العاملة ..

وقد أحب زميلاً فيه كل المواصفات الفكرية والعقلية والثقافية .. وليس عنده بيت.. ولا يملك وظيفة .. أنا أريد رجلاً « جاهزاً » حتى ولو كان ميكانيكياً .. إننى أفضل ميكانيكياً يعمل عن طبيب يجلس على الرصيف .. ماذا يعيب رجلاً شريفاً يكسب بعرق جبينه .. أما ثقافته.. فهذه قضية تعنينى وحدى وسوف أحاول أن أجد لها حلاً .

قلت : وتجارة العملة ؟ .

قالت : كثيرون من أهل الثقافة والفن ارتكبوا مصائب أكبر بكثير من تجارة العملة .. ثم إن الدول نفسها تتاجر فى العملة وليس الأفراد فقط .

قلت : ولكننى مازلت أرى أن الفارق الثقافى سيكون شيئاً واضحاً بينكما فى السلوك والحوار والرؤى .

قالت : الثقافة لا تملأ البطون .. والعقل لا يحمى من صقيع الشوارع .. والحوار لا يغنى فى لحظات الحاجة .

قلت : ولكن البطون لا تلغى العقول .

قالت : حينما ننام على الأرصفة .. تصبح لغة العقول شيئاً من الرفاهية .

قلت : وحينما نفكر فى لغة البطون فقط .. نصبح قطيعاً .

قالت : لن أتخلى عن هذا الرجل .. أنت تعيش فى واد وأنا أفكر فى واد آخر .. أنت تحدثنى عن الثقافة والفكر ولغة الحوار ..

وأنا أفكر فى الرجل والبيت .. والأبناء .. هل تصورت أننى بنت الشاطئ أو أمينة السعيد .. لقد كان زمانهما غير زماننا .. أنا مثلاً لم أقرأ فى حياتى كتاباً واحداً خارج مقررات الدراسة .. وليس هناك فرق كبير عندى بين مجلدات العقاد ودليل التليفونات ..

قلت : إذا كان الأمر هكذا .. على بركة الله .. فليس هناك مشكلة فى هذا الزواج .

وحزنت كثيراً على عقل حواء الذى أجهضته ظروف الحياة !

* * *

سوف يبقى النهار .. نهاراً

قال صديقى .. : ماذا جرى للناس .. يلهثون وراء ابتسامتك ويهربون من أحزانك .. إذا ضحكت لك الدنيا وجدتهم حولك بالآلاف ، وإذا كشرت عن أنيابها لاتجد أحداً منهم ..

إننى أعانى من هذه التقلبات الحادة فى تصرفات الناس .. أشعر بغربة شديدة .. قلوب تحتويها فى لحظات الشدة .. ولاتجد منها أحداً إذا ضاقت الدنيا عليك .. ونفوس تمنحها كل ماعندك ولا تجدها فى لحظة احتياج ..

قلت : كان الإنسان يوماً يشعر بمتعة العطاء .. فكان يعطى بلا مقابل .. كنت تجد الأغنياء يتسابقون أمام بيوت الفقراء .. وكنت تجد الشباب القوى البنيان يترك مكانه فى القطار أو الأتوبيس ليجلس فيه

شيخ عجوز .. وكنت ترى الأب وهو يتكئ على ساعد ابنه فى لحظة سعادة نادرة .. والجيران يواسون بعضهم البعض فى ساعات الألم ولحظات الفرح وأيام الشدة .. وكانت الحياة أكثر أمنا وجمالا والناس أكثر صدقا وعطاء .

أصدقاء اليوم يشاركونك أيامك الجميلة .. وما أقل الأصدقاء الذين يمكن أن تجدهم فى لحظة ضيق .

قال صديقى : وما الذى أصاب الناس بكل هذه العوارض .. كان لى أصدقاء عشنا معاً أجمل أيام عمرنا .. وبدأت الحياة تقتلع جذور الود التى ربطت قلوبنا .. وظهرت أشباح الحقد والأنانية .. إذا اشترى صديقى سيارة يخاف أن تراها زوجتى حتى لا تحسدها .. وإذا اشترى شقة أكون آخر من يعلم .. رغم أننى أحب صديقى هذا ولم أنظر لشىء عنده .. فأنا سعيد بما عندى ، وإن كان قليلاً فى عيون الناس فهو كثير فى عينى ..

قلت : كل إنسان غنى بما عنده .. هناك الغنى بماله .. وهناك الغنى بعلمه .. وهناك من أعطاه الله محبة الناس .. ومنحه قلباً كبيراً .. والذى يملك الإحساس لا تغريه أموال الدنيا ..

قال صديقى : فى لحظات كثيرة أتمنى صديقاً يشاركنى لحظة سعادتى ولحظة شقائى .. أريد تلك الصداقة القديمة التى كانت تربط بين الناس بغير حسابات أو ربح أو خسارة ..

قلت : سوف تبقى الحياة دائماً قادرة على أن تضع قواعد الخير والشر فيها .. وسوف نرى فيها القبح والجمال .. والخير والشر .. وشركاء الألم وسماسرة السعادة .. وكلما زادت مساحات القبح اتجهت قلوب الأنقياء من البشر تبحث عن آفاق الجمال .. قد لا تجد كثيرين يسألون عنك فى لحظة شدة ولكن وسط هذا الركام تجد صديقاً يقف بجوارك ويغنيك عن كل الناس .

فلا تيأس إذا اشتدت حولك ليالى الصقيع فإن زمان الدفء قادم.. والأرض مازالت قادرة على أن تنجب كل يوم صبحاً جديداً .

صحيح أننا نلقى على وجه النهار القمامة والدخان ، ونحاول أن نشوه كل شيء فيه .. ولكن رغم هذا سوف يبقى النهار نهاراً رغم أكوام الغبار التى تملأ حياتنا ..

أنا مثلك يا صديقى أشعر بحزن شديد وأنا أرى حولى أطلال صداقات كثيرة لم يبق شيء منها ، ولكننى مازلت أحافظ على شمعة صغيرة تضيء طريقى رغم أن الريح تطاردها وتحت أقدامى ألف حفرة وحفرة .. ولكن فى زمان القبح والظلام يكفى أن تجد تحت أقدامك ضوء شمعة .

❄ ❄ ❄

الحب .. فى زمن الموت

قالت : هل يمكن أن يحب الإنسان فى زمن الموت ؟ .. كيف يشعر بالأشواق واللهفة من ينام على الشوك .. ويفترش الضياع .. ويصادق الغربة ؟ .

كيف فى هذا الظلام الكئيب تتوحد الشظايا لتصنع نجماً ؟ .. وكيف يبدو المستنقع فى عينى حديقة .. والفئران بلابل .. والخفافيش عصافير الجنة ؟ .

كيف أرى « المهرج » إماماً فى المسجد ؟ .. والسفاح يلبس براءة الطفولة ، والقاتل المأجور يغنى باسم الحيارى المتعبين ؟ ..

زمان الموت والقبح والانكسار لا يمكن أن يكون زماناً للحب .. فالحب نبات يحتاج إلى أرض طاهرة نقية لم تلوثها الدماء ولم تدنسها الخيانة والغدر .

قلت : حينما يتكسر كل شيء وتتناثر حولنا الأشياء يحاول الإنسان أن يبحث عن بقاياه التى انشطرت .. يدور فى الفضاء لعله يجد نصفه الذى ضاع منه .. رغم أن الظلام قاتم .. والأيام كئيبة .. والسماء معتمة .. يحاول كل جزء أن يبحث عن نصفه الذى انشطر وضاع لعله يتوحد معه فى لحظة يتجاوز فيها حدود الكون والحياة والأشياء .

فى لحظات السقوط الكبرى يصبح الحب حلا .. وقد يبدو أنه حل فردى .. ولكنه يبقى الملجأ والملاذ .

ومازلت أذكر القصة الشهيرة لعملاق الأدب الروسى «باسترناك» « دكتور زيفاجو » حينما أظلمت الدنيا حول بطلها الطبيب الشاعركان يهرب إلى عيون حبيبته « لارا » كما هرب يوماً « أراجون » فى عيون « إلزا » .

وقد يبدو الحديث عن لغة العيون فى زمان الموت نوعاً من الرفاهية الثقيلة ، ولكن الحب سوف يبقى ضرورة إنسانية لاغنى عنها ، وقد يكون الإنسان أشد احتياجاً له فى لحظات الخوف والدمار والوحشة .

* إن الموت هو أقسى لحظات الاختيار الإنسانى والمواجهة البشرية.. والحب أرقى مراتب الخلاص والتطهير الإنسانى ، فى الموت نهاية الأشياء .. وفى الحب بدايتها *

قالت : ولكن كيف تكون لدينا القدرة على أن نحب والحياة حولنا تسير إلى الضياع . ؟!.

قلت : الحياة تسير إلى الضياع لأنها فقدت الحب .. إن الخراب ينجب الوحشة .. والوحشة تنجب الضياع .. وفى ظل هذا كله يصبح الحب شيئاً غريباً .

لو شعر الإنسان بالحب يوماً ما لبس عشرات الأقنعة وما تغيرت ملامحه ألف مرة .. والحب يعلمنا الفضيلة والذين يعرفون الفضائل لايبيعون أنفسهم وأوطانهم للشيطان ..

هناك أشياء فقدت قيمتها فى سوق المعاملات العربية .. ومنها الحب .. والوفاء .. والشهامة .

سقط الحب صريعاً أمام سطوة القمع والقتل والتوحش ، وسقطت الشهامة فى مستنقع التردى والانكسار ..

وسقط الوفاء أمام وضاعة النفس وموت الضمائر ؛ ولهذا بدأ السوس ينخر فى عظام أحلامنا .. ووجدنا أنفسنا مهددين من أنفسنا.. ورأينا أيدينا تصفع وجوهنا ، وأصابعنا تخترق عيوننا . وتسلل الإخوة فى الظلام يذبح بعضهم بعضا ، ويستبيحون حرمات بيوتهم .. فهل هناك قبح أكثر من هذا ؟ ...

قالت : كيف ترى الغد ؟ .

قلت : أريد أن أرى اليوم أولاً ..

قالت : نحن جميعاً نراه .. إنه شيء كئيب ..

قلت : أكاد لا أصدق ما أرى .. لأننى حتى الآن لم أفهم شيئاً مما حدث .. فكيف أستطيع أن أتنبأ بما سيحدث ؟ .. إن كثيراً من المتورطين فيما يحدث الآن على الساحة لا يعرفون أين ستمضى بنا الكارثة ؟ .

ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ..

❄ ❄ ❄

الزمن الكسيح .. ؟ .

قالت : أريد أن أختار زماناً آخر أعيش فيه .. فأنا لا أحب زماننا .. قامته قصيرة .. ويده مشلولة .. وعقله كسيح ..

ولهذا ضاع الطريق من أقدامنا . أعطنى زماناً طويل القامة .. أعطك رجالاً كباراً ..أعطنى إرادة حرة .. أعطك قراراً سليماً .. كل هذه الأشياء مقلوبة فى زماننا .. ولهذا غاب الرجال .. وانتكست الشعوب .. وفسد القرار ..

قلت : لا ينبغى أن ندين الزمان .. فنحن الذين بايعنا قصار القامة .. ونحن الذين صافحنا الأيدى المشلولة ..

وصدقنا العقول الكسيحة .. وصمتنا أمام كل صاحب قرار خاطىء .

إذا كانت الأرض قد أنبتت صباراً .. فنحن الذين زرعناه .. وكل أرض تستحق أشجارها .. ولن تتساوى أرض تزرع النخيل مع أرض لاتنبت فيها إلا الحشائش ..

ولقد تعودنا أن نزرع الحشائش فى أوطاننا حتى تصورناها أشجاراً رغم أن الأقدام كانت تدوسها وتدوسنا كل يوم .. والخنازير تتمشى على أعناقها وأعناقنا كل ساعة ..

نحن المسئولون عن صناعة أصنامنا ..

شاركنا بصياحنا .. وأقلامنا .. ومدائحنا ..

شاركنا بسكوتنا المهين وصمتنا المشين ..

عشنا فى السجون والمعتقلات ، وغنينا لرواد الحرية ..

عشنا فى الأكاذيب والشعارات .. وصدقنا أنفسنا ومن كذبوا علينا .

تساوت أمام أعيننا أثواب المهانة .. وأثواب الكرامة .. وبعنا أنفسنا ألف مرة لكل شيطان جديد .

انظرى إلى نزيف الأقلام وكم كان يتدفق تحت أحذية الدجالين والكهنة وأصحاب القرار .

انظرى إلا أحلام أجيال بعناها زوراً وبهتاناً وضيعناها فى سراديب الغش والكذب .. والاحتيال .

نصف أحلامنا كان أحلاماً مزورة .. والنصف الآخر كان أحلاماً مغشوشة .. وأول درس تعلمه أبناؤنا هو أفضل وسائل الغش والكذب والتدليس ..

هل هناك أسوأ من أن نقول للأجيال الجديدة أن ضوء الصبح يملأ أرجاء بلادنا رغم أن الشمس غابت من سنين ..

هل هناك أسوأ من أن نقول لهم أن رياح الحرية تملأ كل جزء فى أوطاننا وأمام كل واحد منا ألف جلاد .. وألف قاتل ..

هل هناك أسوأ من أن نقول إن قرارنا فى يدنا ، وهناك عشرات الأيدى الخفية التى تحركنا كعرائس الأطفال ..

أنا لا ألوم الزمن .. فنحن الذين صنعنا زماننا ..

نحن الجلادون والمأجورون والقتلة .. ونحن الأنبياء ، دعاة الفضيلة .. فالإنسان هو كل هذه الأشياء ..

فإذا تركنا زماننا للجلادين فنحن نستحق ذلك ..

وإذا تركناه لأصحاب الفضائل .. فنحن أيضاً جديرون بذلك .. لقد حملت أعناقنا أحذية كثيرة ؛ ولهذا كنا نستحق كل ما حدث لنا .. فالشعوب العظيمة لا تقبل أبداً أن تعيش كالفئران المذعورة فى الحفر.. إنها دائماً تحب أن تكون عالية الرأس .. مرفوعة الجبين .

قالت : إذا كان الإنسان هو صانع زمانه ، فإن فى زماننا كثيراً من المعادن الجيدة .

قلت : ولكنها رضيت أن تعيش مع الصدأ .. فتآكلت .. إن الطيور العريقة تفضل الموت عطشاً ولا تشرب مياه المستنقعات ، وكثير من الأشجار تموت إذا أغرق الملح وجه الأرض .. والنحل لا يصنع العسل من صناديق القمامة ..

وإذا كانت المعادن الجيدة قد قبلت أن يسكنها الصدأ فعار على الذهب أن يصبح كالصفيح ويرضى أن يصدأ ..

لا تصدقى بعد اليوم كل ما قيل لنا من شعارات كاذبة .. الشىء الوحيد المؤكد أننا نستحق كل ما نحن فيه .. لأننا قبلنا أن نعيش هذا الزمان بكل خطاياه .. ولعلنا يوماً نفيق .

❄ ❄ ❄

نهَاية الترحَال

قالت : كيف أحبك وسط هذا الركام .. وكيف تحبنى بين هذه الأنقاض ؟ زماننا قتل كل شىء جميل فى أعماقنا . أصبح الحق ضلالا، والزيف صدقا ، قضايانا التى عشنا بها .. ولها .. ترنحت أمامنا وسقطت شهيدة تحت سياط الطغيان والتسلط . كل الأحلام الجميلة ، التى عاشت فى خيالنا ، فى مستقبل أفضل وإنسان أكمل ، أراها الآن أطلالا تحاصرنا . فكيف تنبت أشجار الحب بين هذه الخرائب

لقد جئنا يا صديقى فى غير زماننا .

تخيل ، مثلا ، لو أننى أحببتك فى زمن أكثر نبلا ورقيا .

تخيل ، مثلا ، لو أننا التقينا والحياة أكثر تناغما ، والناس أكثر إنسانية ، والعمر أكثر رحمة .

زماننا يفرض علينا شكل علاقاتنا ، وطريقة حياتنا ، وأساليب معيشتنا ، إننى أتلفت حولى فى كل مكان لأننى خائفة ، ولست خائفة من الموت ، ولكننى خائفة من الجلادين وسماسرة البشر وتجار الرقيق .. وما أكثرهم فى أوطاننا .

أنا خائفة لأننى فقدت ثقتى فى كل شىء .

فالأرض التى نعيش عليها ونسعد بها يمكن أن تصبح لنا قبراً ، والوجوه التى نعرفها ونحبها يمكن أن تختفى عنا فى لحظة .

وكل الأشياء التى أحببناها يمكن أن تنتزعها منا يد الشر فلا نعرف لها طريقا .

أنا خائفة لأننى أعيش فى زمن لم يعد يحترم آدمية البشر . لقد أصبحنا مجرد لعب صغيرة تعبث بها أيد غريبة ، ونحن لانعلم عنها شيئا .

أنا متأكدة أنك مثلى تؤمن أن كلينا جاء فى الزمن الخطأ .

قلت : أنا معك فى أننا نعيش فى الزمن الخطأ ، لكن ذلك أعطانا فرصة كبيرة لأن نختبر معادننا . يكفى أننا حتى الآن لم نسقط كما سقط الآخرون ، فمازلنا نقف على أقدامنا ، نتحدى فى صلابة ، ونقاوم فى بأس ، ونرفض أن ننحنى وأمامنا قامات كثيرة سقطت ، ونرفض أن نساوم وأمامنا هامات كثيرة ركعت .

مازال الأبيض فى عيوننا هو الأبيض ، ومازالت سحابات الليل القاتمة واضحة فى عيوننا . كثيرون حولنا أصابهم عمى الألوان ، فباعوا وتاجروا وساوموا ، ومازلنا نحن نرى الزيف زيفا . كثيرون حولنا انتشرت فى أعماقهم الخرائب ، وباعوا أنفسهم للشيطان ، ومارسوا كل أنواع التسول ، وعرضوا ضمائرهم على الأرصفة لكل من يريد . وبعد أن باعوا كل شيء جلسوا فى وحدتهم .. يحاصرهم عذاب الضمير ولعنة الوحدة .

الأنقاض تحاصرنا ، والركام يحيط بنا ، ولكننا مازلنا نرى ونتكلم ونصرخ ، وقبل هذا كله مازلنا نحلم . *

* سوف أظل واقفا حتى آخر العمر ، أسمع صوت ضميرى ، لن يخدعنى زيف ولن يضللنى بريق ، لأننى مازلت أرى البريق فى أعماقى وأشعر أننى بقناعتى أزداد غنى ، وبضميرى أزداد رقيا ، وبمواقفى أزدادا إيمانا بقناعاتى .

* ليس زماننا زمن الحب ، ولكننا مازلنا قادرين على أن نحب . *

ليس زماننا زمن الضمائر الحية ، ولكن ضمائرنا مازالت ترى الحق حقا ، والبهتان بهتانا .

ليس زماننا زمن القامات الطويلة ، ولكن رءوسنا مازالت فى السماء بمواقفنا وإصرارنا وإيماننا بالإنسان .

إن هذا الزمن القبيح هو أكبر امتحان لمشاعرنا ، وهو الصخرة التى سوف نستمد منها صمودنا ، وتقوى أمامها إرادتنا .

فأنا أحبك والركام يغطى كل شىء حولنا ، وأنا أحبك والغد يبدو ضبابيا حزينا .. وأنا أحبك لأننى مازلت أومن بأن الحب هو المعجزة الكبرى فى هذه الحياة .

ولنبق معا نصنع الزمن الجميل .

❄ ❄ ❄

عدوى القُبح

من أسوأ الأشيـاء أن يختلط القبح بالهـواء الذى يتنفسه الناس فيصيبهم جميعاً بعدوى القبح .. وهنا يصبح القبح سمة من سمات الحياة فى السلوك والمشاعر والحوار والفن والسياسة .

أقرأ الصحف ، فأجد عدوى القبح تتسلل من كل سطر : نفاقاً كان أو رياء أو زيفاً أو دماء شعوب تسيل على الورق .

أفتح التليفزيون ، فأجد نماذج بشرية كريهة : هذا ابن سرق أباه العجوز وألقى به فى مستشفى الأمراض العقلية .. وهذه زوجة قتلت والد أبنائها وشريك عمرها .. وأصبح القبح من أكثر الأشياء رواجاً فى مسلسلاتنا .. بكل ألوانه : سلوكاً وخلقاً وكلاماً .

تذهب إلى السينما ، فتطاردك أفلام المخدرات والجنس والاغتصاب .

تجلس مع الناس فلا تسمع غير الحكايات الدامية عن سلوكيات الناس : من خدع ومن خان ومن ارتشى ومن تآمر .. ويكفى أن تقرأ صفحة الجريمة لكى تشعر بما وصل إليه حال الناس .

وتحاول أن تنتشل نفسك وتذهب لتجلس مع صديق قديم ، فيحكى لك عن مآسى العمل والأبناء والجيران والأقارب .

كل هذه الأشياء تحاصرنا الآن .. فهل اختفت من حياتنا كل النماذج البشرية الطيبة والشريفة ؟ !

هل تسلل طغيان المادة والجشع إلى كل شىء فى حياة الناس ؟ أم أن هناك دوائر أخرى بعيدة عن ركام المدينة ، تعيش حياتها بصور أكثر نقاء فى الأخلاق والسلوك والمشاعر .. ونحن لانعرفها لأننا لانراها وسط هذا الزحام ؟

هل أصابت عدوى القبح الناس جميعاً ، أم مازال هناك البعض منا يحافظ على عقله ووجدانه وضميره من هذا الوباء القاتل ؟

أسأل نفسى : هل هى مشكلة مجتمع استباحه القبح ؟ أم أنها مشكلة بعض الناس الذين نراهم بحكم العمل أو السكن أو الاختلاط ؟ فالناس حولك غير راضين عن حياتهم .. من يملك الملايين يريد مزيداً منها .. ومن وصل إلى منصب يريد الأعلى منه .. ومن حقق نجاحاً لايهمه أبداً عدد الضحايا الذين سقطوا تحت أقدامه فى رحلة الوصول .. ومن ملك سلطة جعل من نفسه كينونة لايرفض لها أمر ولا تعصى

لها رغبة .. وكلهم غير راض عن أحواله ويطمع فى المزيد ، ولو كان ذلك على حساب كل الشرائع والقيم .

من ملك شقة يريد عمارة .. ومن علم الأبناء يريد لهم أرصدة تؤمن مستقبلهم .. والكل يلهث ويجرى ولا يشبع بشىء .. وتحاول أن تنظر فى وجوه الناس حولك فتجد الكآبة والحزن وعدم الإحساس بالرضا؛ لأن الإنسان قد يملك مال الدنيا ولايشعر أبداً بالغنى .

وحينما يزداد عدد المصابين بعدوى القبح لاتكفى المستشفيات ، ولاتنفع وحدات الإسعاف ، ويتسلط الحزن على قلوب الناس ، وتختفى الحدائق من أعماقهم ، ويصبح كل شىء فى الحياة موحشاً ومخيفاً .

وفى بعض الأحيان تجلس مع نفسك فى لحظة صفاء ، وتتمنى لو وجدت عملاً فنيا راقياً يخرجك من سطوة همومك ، تتمنى أن تعود «أم كلثوم » مرة أخرى فى أغنية تطهر نفسك ، تتمنى أن تصافح وجهك ابتسامة بريئة وأنت تشاهد فيلماً لنجيب الريحانى وليلى مراد .. تتمنى أن تجد سياسياً أميناً يخاف الله فى شعبه .. تتمنى أن تجد صديقاً يشاركك حزنك كما تشاركه أفراحه .

وتشعر وسط هذا كله بأن الحياة فقيرة فى كل شىء ، رغم أن الإنسان أصبح يملك كل شىء .. أغنياء المال فقراء فى المشاعر .. وأغنياء المشاعر تعساء فى الحظ .

وتسأل نفسك : وما هو الحل ؟

قد يبدو الحل بعيداً ولكنه أقرب مما نتصور جميعاً .

إن الحل فى داخلنا نحن أولاً وليس بعيداً عنا . كل هذا القبح الذى يسكننا أسبابه معروفة وغير خافية علينا .. حينما سقط الإنسان داخلنا اقتحمت خفافيش القبح حياتنا ، وانتقلت مثل الأمراض تقتلع من حياتنا كل ماهو جميل .. وحينما يعود الإنسان إنساناً لن يصبح للقبح مكان بيننا .

* * *

عِندما نسرق من العُمر .. يوماً

كان صوتك يأتينى من بعيد ، وبريق عينيك يطل من خلف سحابات الخريف فيعود الدفء إلى أعماقى . أشعر بغربة شديدة وأنا بعيد عنك ، أفواج من البشر تندفع حولى فى كل اتجاه ولاتتعلق عينى بوجه واحد منها . الوجوه متشابهة فى الشحوب والحزن والكآبة ، وكلهم يسرعون إلى لاشىء .

وأنا بينهم كالريشة التى تسلمها الرياح إلى الرياح .. ولكننى رغم هذا الطوفان المجنون مازلت أحاول أن أكون نفسى ، كل شىء حولى يحاول أن يقتطع جزءا منى ، ومازلت أحاول أن أثبت قدمى لأن كل شىء يسحبنى إلى القاع .. كلٌ يسكن الآن هذا القاع : الحلم .. والسلوك .. والأخلاق .

أحـاول أن أرى بعـيـونى رغم أن الليل دامس والظلام طويل . أحاول أن أحافظ على بكارة ضميرى ونقاء نفسى وخوفى من الله .. رغم أن أشياء كثيرة ضللتنا وكسرت نفوسنا واستباحت عزائمنا .

أصعب الأشيـاء أن يحاول الإنسان الآن أن يحافظ على ما بقى فيـه من صفـات الإنسـان . وأنت أجمل وأصدق مـا بقى عندى من إنسانيتى . إذا اندفعت حولى أسراب الوحشة أشعر بأن لديك الأمان . وإذا ارتفعت أمواج الحيرة والشك أزداد بك يقينا .. أجد فيك عالما فسيحا من النقاء والتجرد نسى الناس ألوانه وأشكاله ولياليه .

بعيدة أنت هناك . مسافات طويلة تفرق بيننا . ولكنى رغم هذا كله أشعر بأننا مازلنا معا ، وأن المسافات التى فرقتنا جسداً جمعتنا روحا ، وأن ابتعادى عنك وحّدنى معك ، وأنك أصبحت فى كيانى دماء تتدفق وأحلاماً تبدد ظلال حيرتى ويأسى وظنونى .

بعـيـدة أنت . لكنك تتسللين فى غفلة منى ، وتسكنين أقـرب الشرايين إلى قلبى ، وتعانقين كل نقطة دم تتدفق فى عروقى .

وجوه كثيرة نلقاها فى حياتنا ، ويبقى وجه واحد دون كل الناس يسكننا . دروب كثيرة نسلكها ، وتظل أقدامنا تألف طريقا واحدا وتسعى إليه .

بعـيدة أنت ، ولكنك معى دائمـاً ، نسترجع لحظات من العمر سرقناها وعشناها بكل جوانحنا .

غنينا ، رغم أن الدنيا حولنا نسيت كل الغناء الجميل .. فالعصافير سافرت ، ولم يبق على الأشجار غير بقايا الصمت وأغنيات الرحيل .

طفنا فى الشوارع كأننا طفلان تحاصرنا الدهشة ، وتملؤنا البراءة .. ويعبث فى أعماقنا طيف الجنون .

كنت أحاول أن أسرق لك من عيون القمر زهرة جميلة تبدد وحشتنا فى ليل الخريف الطويل . وكنت أراقب وجهك المشحون بالكبرياء والأمل الكسير ، وأحاول أن أغرس فى ليالى الحزن ابتسامة

عشنا براءتنا وشيئا من جنوننا . وتمنينا لو امتد بنا العمر فأصبحت اللحظة عمرا ، وغدت الساعة دهرا .. وتمنينا يومها لو توحدنا فى كيان واحد حتى لاتشطرنا الحياة مرة أخرى .

بعيدة أنت .. وكل شىء حولى يحمل عبير أيامك وأنس لياليك، وصفاء أيامنا الجميلة وقلبك النبيل .

ورحلت .. وبقيت أنا أنتظر عودة الفجر الذى تسلل من عمرى ذات يوم .

ومازلت أحلم .. فربما يشرق بين أيامى من جديد .

❄ ❄ ❄

ويبقى الحبُ .. هو الطريق

قالت : سنودع الليلة عاما ونستقبل عاما جديدا ، سوف تختفى من أمامنا بعض أوراق الشجرة ، ولكن هناك أوراقاً أخرى تنبت مكانها سوف يطل علينا الليل وهو يجمع بعض أيامنا ويرحل ، ومن رحم هذا الليل سوف ينبت فجر جديد يضىء أعمارنا بأحلام جديدة . مع رحيل عام نطوى صفحة ، ومع مجىء عام نفتح صفحة أخرى ، وما أجمل أن تكون لدينا القدرة على مواصلة الحياة بالأمل والحب والعطاء ، رغم أن كل شىء حولنا يسير بنا فى طريق آخر .

قلت : أنا مازلت أراهن على الحب طريقا للخلاص . لقد احتميت فيه زمانا طويلا من متاعب الزمن وقسوة الحياة . كان إحساسى بالحب أكبر من برودة الأيام وصقيع العمر . ورغم كل ما رأيت ، فالحب فى رأيى هو الطريق الوحيد لإنقاذ الإنسان فى هذا العصر المخيف .

فى أحيان كثيرة كنت أتصور الحياة بعيدا عنك ؛ فأراها شيئا كئيبا . كلما ضاقت بى الأيام أرى عندك الأمن ، وكلما أغلقت الحياة أبوابها فى وجهى أجد عندك الدفء والعطاء والسلوى .

إننا نستغنى عن العالم كله بإنسان واحد يحتوى مشاعرنا ، فليست العلاقات بتلك المساحات الشاسعة التى يضيع الإنسان فيها ، فما أكثر الناس حولنا ، وما أكثر اغترابنا عنهم ، وافتقادنا لإنسان نجد عنده الأمن والأمان . العمر عندى يتجسد فى قلب أجد معه وفيه نفسى

الكون عندى شخص واحد أحبه ويحتوينى ، وهذا عندى هو طريق الخلاص من معاناة هذا العصر . إن مشاكلنا أكبر كثيرا من قدراتنا ، وأحلامنا أطول قامة من أيامنا ، وعذاباتنا أعمق من احتمالنا، لهذا كله يزداد إيماني بالحب . إنه فى زماننا ضرورة إنسانية قبل أن يكون ضرورة عاطفية ليس الحب كلاما جميلا فقط ينساب بين عاشقين ، ليس فقط قصيدة حب تتهادى فوق مياه النيل فى ساعة غروب . الحب مشاركة إنسانية لمواجهة الحياة . إنه حالة يتوحد فيها قلبان وتتماسك بها إرادتان ، وتفتح لهما ألف طريق للأمل

أنا بك الأقوى ، ومعك الأقدر ، وبوجودك أتصدى لكل إحباطات هذا الزمن العجيب .

سنودع الليلة عاما ، ونستقبل عاما ، ومع رحيل العام يزداد يقينى باحتياجى لك ، وبأن حبك عطاء سخى من زمن بخيل ، بريق

عينيك أضاء وحشة أيامي وظلمة وحدتى ، وأعطانى القدرة على أن أتحمل زحام العمر ، وسخافات الناس وتفاهات البشر .

عام يرحل بكل خطاياه ..

وعام يجىء بكل أحلامه .

وبين خطايا عام يرحل ، وأحلام عام يجىء ، تعالى أعانق فيك عمرى بساعات فرحه وأحزانه ، وبكل ما فيه من أمل ورجاء .

سوف نعيش اليوم معا لحظتين جميلتين :

لحظة غروب نصافح فيها عاما مضى ، ولحظة شروق نعانق فيها عاما يجىء . وقبل هذا كله سوف نقف مع أنفسنا بعض اللحظات ، نقلب صفحات سنطويها ، ونستقبل صفحات تنتظرنا وننتظرها بكل الشوق .

مازال يقينى يزداد بأن الحب هو ملجأ الحيارى ، وبيت المتعبين ، وأمن الإنسان ؛ فكلما ازداد الإنسان حيرة وضياعا ، ازددا إيمانه بالحب طريقا وملاذا .

سوف نودع الليلة عاما ، ونعانق عاما . وبينهما تقف شجرة شامخة تلقى ظلالها علينا . زرعناها زمانا طويلا ، وسقيناها من دمنا ، وكبرت على عيوننا . أعطيناها أجمل ما يعطى البشر ، فلم تبخل علينا بظلالها وثمارها وعطائها الجميل .

❄ ❄ ❄

حضارة .. بلا ضمير

قالت : ماذا ستفعل بنا حضارة الكمبيوتر والصواريخ والأقمار الصناعية والمسلسلات الدامية وأفلام المخدرات والرعب والإرهاب ؟ ماذا سيفعل بنا الإدمان والإيدز والغازات السامة ؟ ماذا ستفعل بنا هذه الحضارة التى ينقصها شيء واحد اسمه الضمير ؟ وفرت للإنسان كل الأشياء وسلبت منه أعز الأشياء : وهو الضمير !

قلت : أشفق كثيراً على الأجيال التى ستأتى ، فلقد أخذنا نصيبا لابأس به من الزمن الجميل ، أحسسنا بجمال الفن وعشنا مع روعة المشاعر ورأينا وجوها مختلفة للحياة ، لكن الأجيال الجديدة لن ترى فى هذا الزحام غير شيء واحد هو التكنولوجيا . فى كل شيء سوف تتحرك مجموعة من الأزرار . لن يجد الجيل الجديد لحظة يعيش فيها مع نفسه إنه ضائع دائماً مع ملايين الأشياء حوله ، يتناثر كل صباح ، وحتى

يغمض عينيه فى المساء ، ولا يملك الحق فى أن يلملم بقاياه المبعثرة . وفى كل مكان يجد شظاياه متناثرة أمام التليفزيون وجهاز الكمبيوتر وأكاذيب الصحافة وألاعيب الإذاعة وعمليات غسيل المخ والحقائق الضائعة .. وعشرات الحقائق المزيفة !. وأمام هذا كله فقد نفسه، وزادت حدة الصراع بين من يملكون كل شىء ، ومن لا يملكون أى شىء بين أقلية محدودة مازالت تؤمن بقيمة الإنسان : إحساسا ومشاعر وضميرا ، وبين طوفان من الماديات لايؤمن إلا بشىء واحد يحرك به العالم كله . وهو المادة : مالا وعلما وتقدما ودمارا . وقليلا ماتجتمع الآلة والضمير والكمبيوتر والإحساس ، والقنبلة والرحمة ، والرصاصة والقلب الكبير .

معادلات غير متوازنة بين من يرون فى الفضيلة طريقا ، ومن يرون فى الدمار حلا .. وبين هذا وهذا ملايين الضحايا ..

وانتقل الصراع من الأفراد إلى الشعوب والأمم ، شعوب تؤمن بحقها فى الحياة وتبخل بهذا الحق على الآخرين . حكومات تتغنى بحقوق الإنسان وهى أسوأ من يمارس أنواع البطش والإرهاب ضد الإنسان . أناس يتغنون بالعلم والتقدم ويصنعون القنابل والغازات السامة وكل أساليب الدمار . عالم يحمل ألف قناع ، وكل قناع يحمل ألف جريمة .. وكل جريمة تفتح ملايين القبور .

إن ماوصل إليه العالم من تقدم في كل شىء يعتبر بلا شك خطوة واسعة للأمام ، بل إنها خطوات . ولكن حضارة اليوم ينقصها الضمير

حتى لاتتحول إلى خراب يهدد مستقبل الإنسان ، تنقصها العدالة بين من يملك ومن لايملك .. وأخطر مايملك إنسان هذا العصر هو العلم .

ونحن شعوب تقف الآن فى نهاية سلم القدرات الإنسانية ، فمازلنا نفكر بمشاعرنا ، ونصدر الأحكام بقلوبنا ، ونبنى ناطحات السحاب فى أحلامنا . وأسلمتنا السلبية إلى حالة من الجمود ، وأسلمنا الجمود للوهن ، وأسلمنا الوهن للضياع .

لست سعيدا بكل ماوصل إليه العالم من تقدم فى العلم والحضارة والإدارة والسلوك ، ولكننى أرى أن من يعيش زمانا فلابد أن يستوعب ظروفه ، فمن الظلم أن يعيش الإنسان خارج إطار زمانه ، فيترك سيارته ويركب حمارا ، أو يترك جهاز التلكس ليستخدم الحمام الزاجل

فى عالم اليوم مشاركون ومتفرجون ومندهشون ، ونحن نقع فى الدائرة الأخيرة ، وحولنا تجرى الدنيا كلها . ولا أدرى إلى متى سوف نبقى فى مواقعنا .. هذا إذا بقينا !

❊ ❊ ❊

عن الأطبَاء .. سألونى ..

قالت : كيف ترى مهنة الطب ؟

قلت : من أنبل المهن الإنسانية ، فليس هناك أجمل من أن تعطى الإنسان أملا فى الحياة .. فما بالك إذا كان هذا الأمل هو أغلى ما يملك وهو الصحة .. إننى أحب الطب : المهنة والرسالة والأمل . ويكفى أن البسطاء فى بلادنا يسمون الطبيب حتى الآن « الحكيم » وهى تسمية تليق برسالة الطب والأطباء .

قالت : معنى هذا أنك كنت تتمنى أن تكون طبيبا .

قلت : أنا لا أصلح لهذه الرسالة .. لأنها تحتاج أحياناً إلى قلوب قوية .. وقلبى كثيرا ما يخذلنى .

قالت : أى الأطباء أكثر إحساساً .. ؟

قلت : لست خبيراً فى مشاعر الناس ، ولكن إحساسى يقول إن طبيب الأطفال مثلا إنسان مركب المشاعر .. يبدو أحياناً فى غاية البساطة ، وفى أحيان أخرى يبدو فى منتهى التعقيد ..

إنه يتعامل مع البراءة بكل ما تحمل من الصدق .. ولكنه يبدو أحياناً قاسياً حتى مع البراءة نفسها ..

إنه ينتقل من أقصى درجات البساطة حين يداعب طفله المريض إلى أقصى درجات القسوة حين يحاول إنقاذه .. وبين هذه المناطق يبدو طبيب الأطفال شخصية مركبة للغاية ، فقد يكون بسيطا جداً أو فى منتهى التعقيد .

قالت : وماذا عن طبيب القلب ؟

قلت : يخيل إلى أنه إنسان عملى جداً ، فقد أدرك من خلال تجاربه حقيقة الإنسان فى هذا الجزء الصغير الذى تدور حوله عجلة الحياة بكل مشاعرها .. إن الطبيب يدرك أهمية هذا القلب ، وهو يعبث بمشرطة الصغير فى سراديبه المتعددة ، وعندما تسرع دقاته أمام موقف صعب أو ذكرى حزينة .

ولهذا لابد أن يكون طبيب القلب إنسانا واقعيا جدا حتى لا تخونه مشاعره ، وهو يعبث بالقلب الصغير .. قد يصطدم مشرطه بقصة حب دامية .. أو حلم جريح .. أو أحزان عمر ضائع .. ولهذا فإن طبيب القلب يتعامل مع قلب مريضه كما يتعامل المهندس المعمارى مع عمارة

يبنيها أو يرممها .. لا يعنيه كثيراً من عاشوا فيها .. أو من سيجيئون إليها .. إن طبيب القلب لا يرى فيه شيئا غير مجموعة شرايين وصمامات ودهاليز .. ولكنه لن يجد الوقت أبداً لكى يسمع حكايات القلوب .. وما أكثرها .

قالت : وطبيب المخ ؟ ..

قلت : أتصور طبيب المخ إنسانا أنانياً جداً .. يحب السيطرة .. ويتمتع بقدر كبير من الغموض .. ويشعر بقوته أمام الآخرين ، إنه يتعامل مع أخطر أجزاء الجسم وأكثرها أسرارا .. هذا الصندوق الصغير الذى يجمع ملايين الخلايا والذكريات والتجارب .. ويبدو طبيب المخ أمام هذا الغموض حائراً متسائلا عن هذا الكون العجيب الذى يتعامل معه ولا يعرف شيئا فيه أكثر من أنه مجموعة فصوص كل واحد منها له وظيفته ودوره .. فهذا جزء للحواس .. وهذا للإبداع .. وهذا للمشاعر.. ويبدو طبيب المخ أمام هذا العالم الرهيب مثل بحار يحاول أن يلتقط من أعماق البحر لؤلؤة صغيرة .. وربما لا يستطيع أمام هذا السر الغامض .

قالت : وأطباء الأعصاب والأمراض النفسية ..

قلت : إنهم من أكثر الأطباء تعاملا مع المشاعر حبا وكراهية ، ولهذا فهم يمارسون حياتهم وسط أكوام هائلة من المشاعر بعضها يسعدهم.. وبعضها يشقيهم .. إنهم يعيشون قصص الحب والحزن والألم

والسعادة فى عيون مرضاهم ، وربما يكتفون بذلك فى حياتهم .. إنهم غارقون فى مشاعر الآخرين ؛ ولهذا كثيراً ما ينسون مشاعرهم .

قالت : وأطباء العيون ؟ ..

قلت : أراهم فى منتهى الرقة والقسوة معا ؛ لأنهم يتعاملون مع أرقى المناطق فى الإنسان .. وهذا الجزء الصغير الذى يحمل كل تناقضات المشاعر حبا وكراهية .. ورفضاً وقبولاً .. وفى تقديرى أن طبيب العيون لا يمارس الكذب أبداً لأن العيون لا تكذب .. ولكننى أشعر أحياناً أنه يحاول تجريد الأشياء لكى تظهر أمامه عارية .. وأنا لا أحب عيونا فقدت بريقها .. أو أشجاراً نزلت عنها أوراقها .

قالت : وأطباء الجلد ؟ ..

قلت : أعتقد أنهم لا يحبون بعمق .. لأنهم يتعاملون دائما مع الأشياء من الظاهر .. وقليلا ماتتجاوز مشاعرهم حدود جلودهم .. إن شكل الأشياء عندهم أهم كثيراً من جوهرها ، رغم أن الأشياء الخطيرة لا تطفح على الجلد إلا فى أسوأ حالات المرض .

قالت : وأطباء الأذن ؟ ..

قلت : يجيدون سماع الأشياء وربما لا يجيدون الحديث عنها .. إنهم أجهزة استقبال جيدة ينقصها القدرة على الإرسال ؛ ولهذا فإن طبيب الأذن يحب أن يسمع كلام الحب وقليلا ما يحكيه ..

قالت : نسينا أطباء الأسنان .

قلت : يحاولون تجميل الأشيآء رغم كل مظاهر الزيف فيها .. وأحياناً يقف الزمان فى وجه محاولاتهم ؛ لهذا يصنعون أشياء مستعارة.. إنهم كثيراً ما يكذبون ولكن كذبهم من أجل هدف نبيل هو تجميل الحياة ..

قالت : إننى أحب طبيبى ..

قلت : وأى أنواع الطب يمارسها ؟

قالت : إنه طبيب بيطرى ..

قلت : هذه مأساة أخرى .

* * *

لحظات العمر

قالت : ما أجمل لحظات العمر ؟

قلت : فى عمر الإنسان .. كل إنسان .. بعض المحطات التى يقف عليها قطار العمر ، وتبقى هذه المحطات داخلنا نتذكرها ونعود إليها .. تؤنس أيامنا فى لحظات الوحشة .. وتعيد لنا الأمل كلما حاصرتنا سحابات اليأس والأحزان ..

نتذكر أحيانا بعض الذين وقفوا معنا فى مسيرة الحياة ، ونرى أيديهم تمتد إلينا من بعيد وتنتشلنا فى ساعة محنة ..

ويمضى بنا الزمان ونشعر أن أيديهم بقيت فى عيوننا أطيافا وذكرى للعطاء الجميل .

نتذكر أحيانا بعض الحفر التى سقطنا فيها وتصورناها قبورنا وخرجنا منها ونحن أكثر صلابة وجرأة وتمسكا بالحياة .

نتذكر بعض الذين ألقوا علينا الحجارة دون سبب غير ضعف نفوسهم ، ونرى فى داخلنا النبل ونرى فى مواقفهم الخسة .. ونشعر بالسعادة .. نتذكر أحلامنا التى حققناها وكانت طريقا شاقا من الألم والمعاناة .. حتى معاركنا الخاسرة نرى فيها صورة للصمود الجميل .

محطات العمر ساعات قليلة نشعر فيها بانتصار الإرادة وقيمة الفضيلة والقدرة على مواجهة الأشياء ..

قالت : ما الذى يمنحنا القدرة على مواجهة الحياة ؟

قلت : الحب .. والإيمان .. والفضيلة ..

حينما أحب أشعر أن دماء جديدة تتدفق فى عروقى .. وأننى أكبر من همومى .. ولهذا تصغر الأشياء فى عينى فأرى كل شىء على حقيقته .. أرى الكبير كبيرا .. والصغير صغيراً .. وأرى فى نفسى أشياء لا أجدها فى الناس .. صدق الإحساس .. وغنى النفس .. والإقبال على الحياة .. الحب هو المحطة التى نشعر فيها أننا أكثر إنسانية لأن قلوبنا تخفق ، وفى أعماقنا مساحات خضراء تعطينا ثماراً كثيرة من الأمل والصدق والدهشة ..

والإيمان يمنحنا الرضا وهدوء النفس والسكينة والصلابة .. فتزداد قدراتنا على مواجهة أشباح الشر .. إنه يجسد فى ضميرنا قدرة هائلة على تجاوز الرغبات .

والفضيلة بيت الأنقياء من البشر الذين لا يقبلون حياة المستنقعات وعفونة القبح ورذائل الرغبات .

والفضيلة تطهرنا دائما من كل ما يلحق بأثوابنا من غبار الحياة والناس والأشياء .. فنرى أنفسنا كما نحب .. وإذا أحب الإنسان نفسه ازداد إقبالا على الحياة .

قالت : أيهما تفضل .. أن تجد إنساناً يحبك .. أو تجد إنساناً تحبه ..

قلت : أفضل مشاعر الحب ، حب متبادل بين اثنين .. صعب على الإنسان أن يحب فقط دون أن يجد من الطرف الآخر نفس المشاعر .. أصعب الأشياء أن تبذر بذوراً في أرض لا تدرك قيمة العطاء فلا تأخذ منها شيئا ..

أنا أكره كثيراً الحب من طرف واحد ، وأشفق على ضحاياه ؛ لأن فيه ظلماً شديداً .. طرف يأخذ كل شيء .. وطرف آخر يدفع كل شيء.. حتى الحب .. يقوم على العدل ..

قالت : وهل يملك الإنسان أن يحب ؟ ..

قلت : لو كان يستطيع ذلك مـاوصل به الحال إلى ماهو عليه الآن .. الإنسان لا يستطيع أبداً أن يحب بإرادته .. فالحب زائر عـزيز يعرف أحبابه .. ويعرف الأرض التي تستحق أن يغرس فيها أحلامه .. ولهذا فإنه لايزور أبداً أوطانا يدرك أنه غريب بين أهلها .

❄ ❄ ❄

الخائفون .. من الغد

قالت : كيف نعيد حرارة الأيام إلى بيوتنا ؟ .. كل شىء فى حياتنا أصابته البرودة .. برودة الحياة تعصف بكل شىء فينا .. والصمت يحيط بنا من كل جانب .. الأبناء صامتون .. أو هاربون .. والزوج لايتكلم .. ولا تكاد تسمع فى بيتنا غير صوت واحد لا يصمت أبداً إلا حينما ننام .. إنه صوت التليفزيون ..

قلت : ليست هذه مشكلتك وحدك .. ولكنها مأساتنا جميعاً .. كل واحد منا يتساءل : لماذا غابت السعادة واختفى الرضا وذهب الإحساس بالأمان ؟ .. والإجابة سهلة للغاية .. لأننا جميعاً خائفون ..

خائفون على الغد رغم أننا لا نملك فيه شيئاً .. فليس هناك إنسان يضمن أن يعيش غده .. ورغم هذا فكثيراً ماتضيع حلاوة اللحظة من يدنا ونحن نعيشها لأن هناك شبحاً يقف أمامنا اسمه الغد .

نحن خائفون من الماضى .. رغم أنه مضى واستراح ، ورغم هذا نراه يكبلنا من الداخل ويحيط بنا من كل جانب .. ونراه فى كل الأشياء أمامنا ، حتى وإن تقدم بنا العمر وسرقتنا السنون .

نحن خائفون على الأبناء .. وفى كل مرحلة من مراحل أعمارهم نجد إحساساً مختلفاً ..

فى طفولتهم نخاف عليهم من المرض ..

وفى شبابهم نخاف عليهم من الضياع ..

وعندما يكبرون نخاف عليهم من الحاجة ومن زمان يذل أعناق الرجال ، وخاصة الشرفاء منهم .

ولهذا فإن أجيال الآباء الحالية هم أسوأ الآباء حظاً .. لأنهم دفعوا الثمن فى شبابهم من أجل بناء أنفسهم .. ودفعوا الثمن فى شيخوختهم من أجل تأمين مستقبل أبنائهم ..

وفى تقديرى أن هذا خطأ الآباء وليس خطأ الأبناء .. كان ينبغى على الآباء أن يتركوا أبناءهم يعيشون حياتهم كما يحبون .. يعملون ويخطئون .. يسافرون ويرجعون .. ولكن الآباء يحاولون توفير كل شىء للأبناء حتى ولو دفعوا العمر والصحة وراحة البال .. وكان حصاد ذلك كله آباء عاجزين .. وأبناء ساخطين ..

فلا الأب استراح .. ولا الابن قنع .. وفى هذا الجو المشحون غابت أشياء كثيرة لأن الجميع يلهث .. الآباء يلهثون لتوفير مطالب

الحياة .. والأبناء يلهثون من أجل الاستمتاع بالحياة .. وبين هذا وذاك وقفت شريحة كبرى في المجتمع غير قادرة على أن تفعل شيئاً .. سواء لأنفسهم .. أو لأبنائهم ..

وكما انقسمت أجيال الآباء بين قادرين وعاجزين انقسمت أجيال الأبناء بين متطرفين وشمامين .. وبمعنى أشد وضوحاً : بين من يملكون.. ومن لايملكون .. وضاع هنا من ضاع .. وسقط هناك من سقط .. وكلاهما هارب ..

هذا يملك أكثر مما يريد فحاول الهروب إلى عالم من الدخان .. وهذا لايملك شيئاً فحاول أن يهرب إلى الله حتى ولو بالطريق الخطأ ..

وبين هذا وذاك ضاع الإحساس بالرضا والأمان ، وغابت تلك الابتسامة البريئة التى كانت تحتوى الأسرة كلها زوجاً وأما وأبناء .

لم يكن العامل الاقتصادى فى يوم من الأيام ضارياً وعنيفاً كما نراه اليوم .. أصبحت الأرقام تفتح أبواب السعادة إذا أرادت وتغلقها إذا شاءت .. واكتشفنا أنها سعادة مزيفة .. مثل المجوهرات المغشوشة التى يبيعها النصابون على أرصفة الشوارع .. ووقف الناس جميعاً فى منتصف الطريق .. من يملكون .. ومن لايملكون ، وهم يتساءلون : أين السعادة ، ذلك الزائر الحبيب الذى كان يتسلل إلى بيوتنا فى غفلة منا وينشر فى أرجائها الحب والأمان والرضا ؟ ..

كيف نعيده مرة أخرى ..

الحزن العام

قالت : تزوجت عن حب .. وعندى طفلان جميلان .. وزوجى رجل صالح .. وأحوالنا المالية « مستورة » .. ولكننا لسنا سعداء !

أشعر أحيانا أننا نبالغ فى أحزاننا .. وأننا لانشكر الله على ما أعطانا من نعم .. نجلس أمام التليفزيون وكلٌّ منا صامت فى مكانه لايتكلم .. انقطعت خيوط التواصل بيننا . وغابت لغة الحوار .. وانتهت تلك الألفة القديمة التى كانت تجدد مشاعرنا وتحتوى قلوبنا .. وإذا تحدث أحد منا فلكى يشكو للآخر متاعب الحياة والعمل والمواصلات والأسعار والزحام .. وإذا تحاورنا فلا حديث لنا إلا عن أزمة الخليج .. والخسائر .. والمستقبل الضائع .. وإذا هربنا إلى التليفزيون وجدنا النكد ولطم الخدود .. خبرنى بالله عليك هل العيب فينا .. أم العيب فى زماننا الذى يطاردنا بالأحزان ؟ ..

قلت : هناك شبح يطارد الناس الآن اسمه الحزن العام .. لم تعد مشاكل الناس تتجمع فى أحزانهم الخاصة أو متاعبهم الشخصية ، ولكن هناك مصدر كبير للحزن يتمثل فى الحزن العام .. لم تعد قضية الإنسان أن يبحث عن رغيف الخبز أو المأوى الذى يحتويه .. أو الزوجة التى تشاركه رحلة العمر .. لايستطيع الإنسان أن يغلق أبواب بيته لكى يعيش آمنا لأن من حوله وحوشاً كاسرة تهدد مستقبله وحياته وأمنه .. كيف يهرب من هذا الوحش الكاسر الذى يطلق عليه كل يوم آلاف الأخبار السيئة .. من قتلت زوجها .. ومن أكلت لحم وليدها .. ومن قتل أمه .. ومن اعتدى على طفلة صغيرة .. تقرأ عنها وتشعر أنك تعيش فى غابة تسير فيها السيارات .. وتنطلق فى سمائها الطائرات ، وتحاصرك بالسموم من كل جانب .. عشرات من النماذج المتوحشة التى تصيب الناس بالإحباط .

كيف يهرب الإنسان من هذا المستنقع السياسى المخيف ؛ أوطان تباع .. وشعوب تتهاوى .. وحكام لا يخافون الله . ويمارسون البطش بكل أشكاله ..

يكفى أن يسمع الإنسان نشرة الأخبار ويشاهد الصور والقتل الجماعى .. والاعتداء الوحشى ومسلسلات التمزق والتشرذم والضياع

إن مسلسل الخليج وحده يكفى لكى يغرس فى أعماق كل الأجيال باختلاف أعمارها حالة من الحزن والمرارة .. كانت بداية المسلسل مأساة الكويت .. وكانت نهايته مأساة أمة .. وبين البداية

والنهاية عشرات المشاهد الحزينة .. ومئات القصص الدامية .. وآلاف الضحايا الأبرياء . كيف يهرب الإنسان من مآسى عصره : الأسعار والشوارع والمدارس والجو والعمل .. وأخلاق الناس ؟ ..

زمان يجعل من الأقزام عمالقة ويجعل من العمالقة أقزاما .. ويعلى السفهاء ويحجب كل صاحب خلق وفضيلة ..

نحن ياسيدتى نعيش زمن الحزن العام .. وهذا نوع من الأحزان المعتقة التى تأصلت داخلنا وامتدت جذورها وأصبحت مثل الأخطبوط.. مثل القطاع العام .. والانهيار العام .. والصمت العام .. والتسيب العام.. والبلادة العامة ..

إن هذا الحزن مثل السحابات السوداء التى تغلف الحياة بالسواد والوحشة والموت .. ولا يستطيع أحد أن يهرب منها لأنها فوق رءوس الجميع .

والحزن العام سمة الزمان الذى نعيشه .. يطارد الطفل فى رحم أمه .. ويطارد الرجل فى رزقه .. وطموحه ، وصومعته .. ويطارد الأم فى حضن وليدها .. إنه لا يرحم أحدا لأنه مثل الغازات السامة يستطيع أن يتسلل فى كل شىء وأن يقتل أى شىء ..

وأمام سحابات الحزن العام أصبح من الصعب على الإنسان أن يغلق عينيه وأذنيه حتى لايسمع الأخبار أو يشاهد صور القمع أو يتابع أكاذيب الدجل .

ووسط هذا كله أصبح الحزن العام وجبة يومية مثل جرائد الصباح وفنجان قهوتنا المرة ..

بيوت .. بلا أحلام

قالت : ما هو الطريق إلى السعادة ؟

قلت : لايمكن أن تتحقق السعادة من غير تحقيق التوازن داخل الإنسان .. فالسعادة ضوء يخرج من داخلنا ويسرى حولنا ، ومشكلة الإنسان الآن أن أوضاع الحياة مقلوبة ، ولهذا يصعب معها تحقيق هذا التوازن .. إذا كان الإنسان طموحا فكل شيء حوله يدعو للإحباط .. وإذا كان موهوبا فكل من حوله يحاربون موهبته .. وإذا كان ناجحا فعليه أن يدفع ثمن النجاح عمرا وصبرا وأحقادا .

ولهذا يصعب عليه أن يصل إلى قدر من التوازن النفسى مع مجتمعه.. ومن الصعب على الإنسان أن يشعر بالسعادة وكل خيوط تواصله مع مجتمعه تآكلت وأصابها الضمور .

قالت : معنى هذا أن يكون الإنسان صدى لما حوله فى كل الحالات .. لماذا لايواجه .. أين دوره ؟

قلت : هذه هى نقطة البداية .. أن يبدأ كل إنسان بنفسه .. أن نغلق ملفات المواعظ والإرشادات والحكم .. لأن الإنسان عادة يفضل أن ينصح الآخرين .. حتى ولو قال كلاما لايعمل به .. والنصح أسهل الأشياء ، ولكن أصعبها أن أعطى القدوة والنموذج وأن أخرج من دائرة الكلام إلى رحاب الفعل والسلوك .. وهذا هو الإنسان القادر على أن يحقق لنفسه قدرا من التوازن .. إذا كانت الحياة حوله أصابتها كل أمراض الإحباط والسقوط والتراجع فينبغى عليه أن يقف شامخاً ويرفض مبدأ السقوط .. وأن يعيد التماسك والحلم إلى حياته .. أن يبنى نموذجا طيبا وصالحا وكريما فى ابنه .. أن يعطى درسا بسيطا للناس فى أخلاقه وسلوكه .

أن يسمع صوت ضميره حتى ولو كان كل شيء حوله يحاول أن يسد أذنيه .. أن يؤدى عمله كما يتصوره دون نظر لربح أو خسارة .. مثل هذا الإنسان سوف يعود فى نهاية اليوم إلى بيته راضيا . فيرى فى ابنه الحلم الذى يتمناه .. ويرى فى نفسه الصورة التى يجب أن يكون عليها سلوكا وأخلاقا وموقفا .

قالت : وكيف يهرب من مسئوليات الحياة .. الأسعار .. والمواصلات والزحام .. والنفوس المريضة ؟

قلت : أنا لا أريد منه أن يهرب .. ولكنى أريد منه أن يواجه .. وهو لن يواجه بالنصائح والصراخ والحكم .. ولكنه يمكن أن يواجه بالقدوة الطيبة .. والنموذج الكريم .. أن يرتفع بنفسه فوق صغائر زمانه.. أن يبنى جزيرة يسكنها ويرفض أن تتسرب إلى شواطئها مياه المستنقعات حتى لانشعر أن الطوفان أغرقنا جميعا .. ليس معنى طغيان الرذيلة أنه لم يعد بيننا مكان للفضيلة .. والمشكلة الآن أن نماذج القبح أصبحت تسيطر على كل شيء .. فلم يعد للجمال مكان بيننا .. ولهذا أصبح كل شيء جميل غريبا فى هذه الحياة .. يجب أن تعود للجمال مساحته فى النفوس .. وأن تعود للفضيلة مكانتها فى سلوكيات الناس .. وليست الحياة كلها بهذا القبح .. هناك نماذج إنسانية رفيعة فى سلوكها وأخلاقها ومواقفها .

مازالت الشمس تشرق رغم سحابات الدخان التى تغطى وجهها .. ومازال القمر يضيء .. رغم أن الليل دامس والظلام طويل .. ولكن يجب أن تقف مواكب الخير والجمال والفضيلة ضد تيارات القبح لأنها الوحيدة القادرة على تغيير مسار الأشياء .

قالت : هذه أحلام الشعراء .

قلت : من الخطأ أن نقول عن كل خيال جميل أنه أحلام الشعراء، لأن مأساة الإنسان الحقيقية أن يخسر رصيد أحلامه ويصبح مفلسا .. إن الإفلاس المالى أقل خطورة من إفلاس الأحلام .. فالإنجازات العظيمة كانت فى رحم الحياة أحلاما .. ومن هذا الحلم يجيء السلوك

القويم الجميل ، وتنبت أشجار الفضيلة .. حيث يكون الإنسان الراقى سلوكا وأخلاقا وعملا .. الإنسان الذى يجعل دستور حياته الإيمان .. والقناعة.. والحب ..

بداية السعادة أن تعود الأحلام ترفرف على بيوتنا مرة أخرى .. وعلى أجنحة الحلم يولد إنسان جديد .

❄ ❄ ❄

عبدالوهاب مازال بيننا

عندما ماتت أم كلثوم أصابنا حزن طويل ، ولكننا كنا نقول بيننا وبين أنفسنا : مازال بيننا عبدالوهاب .. وعندما رحل عبدالحليم وفريد الأطرش ، ودعناهما بأحزان الدنيا ، ولكننا كنا نقول : مازال بيننا عبدالوهاب .. وحينما رحل الثلاثى العظيم : السنباطى والقصبجى وزكريا أحمد ، بكينا عليهم طويلاً .. وقلنا يومها : مازال بيننا عبدالوهاب .. وأخيراً .. رحل عبدالوهاب .. فماذا بقى لنا بعده ؟ لم يكن عبدالوهاب مجرد ملحن أو مطرب عبقرى عاش فى وجدان أمته نصف قرن من الزمان ، ولكنه كان إمبراطورية فنية ضخمة امتدت حدودها واتسعت آفاقها ، وتفردت دون سواها بالارتقاء بوجدان الناس والارتفاع بأذواقهم .. ولم يكن هناك شىء أهم من الفن فى حياة عبدالوهاب ، ولكنه كان يخاف النسيان .. والموت .. والحاجة .

كان يخاف النسيان لأنه يدرك بفطرته وتجاربه أننا شعوب تنسي.. وأن النسيان عادة عربية أصيلة .. وأن الوفاء ضيف عزيز قليلا مايزور بيوتنا ، ويطرق أبوابنا ، وخاصة أننا نعيش زمان الجحود.. كان عبدالوهاب يخاف أن ينساه الناس .. وقد وضع أمير الشعراء أحمد شوقي هذه البذرة فى أعماق عبدالوهاب من البداية حينما طلب منه أن يغنى قصائده بعد رحيله حتى لاينسى .. وأنا أعتقد أن نسيان عبدالوهاب مسألة مستحيلة .. فقد ترك بيننا تراثاً عظيماً يصعب على أية قوة أن تحذفه من ذاكرة هذه الأمة مهما انتشرت آفات الجحود والنكران .

وكان عبدالوهاب يخاف الموت .. ويخاف قبله المرض ... ولهذا كان شديد الحرص على صحته وسنوات عمره الجميل .. ولهذا لم يسرف عبدالوهاب فى شىء على الإطلاق .. وقد عاش نجماً فى كل شىء : فى فنه .. ومظهره .. وحياته .. لم يترك أشباح الحزن تتسلل إلى غرفة نومه لتؤرقه .. ولم يترك مشاعر الإحباط والكآبة تكبر فى أعماقه .. كان إنساناً يضع كل شىء فى مكانه : الفن .. والحب .. والمال .. والأصدقاء .. لقد ارتفع بفنه فوق كل شىء .. وابتعد عن كل شىء إلا فنه.. ظل وفياً له سنوات عمره الطويل .. وأنا أسمى حياة عبدالوهاب بالعمر الجميل .. لقد عاش هذا العمر طولاً وعرضاً .. وكان دائماً فوق الجميع .. ولم يترك القمة لحظة واحدة .. بل إننى أدعى أنه لم يوجد فى كل الأجيال التى عاشها من ينافسه على هذه القمة .

وكـان عـبـدالوهاب يخـاف الحـاجـة .. لأنه لم يـكن يأمن غـدر الزمن.. وكـان يرى نماذج كـثـيـرة من الفنانين الذيـن ظلمتـهـم الحـاجـة .. فوقفوا على أبواب من يساوى ومن لا يساوى .. ولقد اعتاد عبدالوهاب على الرفاهيـة منذ كـان صبـيـاً فى منزل أمـيـر الشـعـراء .. وكـان من الصعب عليـه أن يغير أسلوب حياته .. ولعل هذا هو السبب الأسـاسى فى حرصه الشديد ، وهو ما فسره البعض بحبه للمال .. ولم يكن ذلك حباً فى المال.. ولكنه كان حباً فى ذاته وخوفه من أن يعرضها لأشيـاء لايقبلها لنفسه . وعبدالوهاب انتقل بفن الأغنية إلى مناطق جديدة تماماً .. فى الأداء .. والكلمات .. واللحن .

قال لى رياض السنباطى يوماً : إن عبدالوهاب أجمل صوت ظهر فى تاريخ الأغنية العربية .. وأنه صوت لن يتكرر .

وعبدالوهاب هو الفنان الذى انتـقل بالأغنيـة من الملاهى وحوارى القاهرة إلى رحاب شوقى ومحمود حسن إسماعيل وعزيز أباظة .. وعلى محمود طه .. وأبو الوفـا .. وكامل الشـناوى .. ونزار قبـانى .. وخرج بالوجدان العربى من أغانى الستارة .. إلى الكرنك .. والنهر الخالد .. والجندول .. وهمسة حائرة .. هذا بجانب فـرسان العـامية : رامى وبيرم ومأمون الشناوى .. وحسين السيد .. وعبدالوهاب محمد .

قبل أسبوعين من رحيله كنا نتحدث فى منتصف الليل بالتليفون، وانتقل بنا الحديث إلى الشاعر العـالمى « لورد بيرون » .. وكنت أحكى

له قصة هذا الشاعر مع زوجة رئيس الوزراء التى كانت تحبه وفرقت بينهما الأيام .. وذات يوم كانت زوجة رئيس الوزراء فى طريقها إلى بيتها عندما شاهدت جنازة مهيبة تشق الشوارع ، وعندما جلست مع زوجها على الغداء قالت له : شاهدت اليوم جنازة رهيبة فى المدينة ، لا تكون إلا للحاكم .. فهل مات الحاكم ؟ فقال لها زوجها : نعم .. لقد مات من هو أكبر من كل الحكام .. مات بيرون ..

وشعرت أن عبدالوهاب لم يكن لديه رغبة ليلتها لأن يسمع حديثاً عن الموت .

وعندما كنت أشاهد جنازة عبدالوهاب وهى تشق طريقها بكل هذا الجلال .. قلت لنفسى : لقد مات عبدالوهاب .. فليس هناك أكبر من عبدالوهاب فى حديقة الفن العربى تأثيراً ودوراً ورسالة .. ولا أدرى هل أبكى فيه الصديق أم الفنان .. أم نبكى فيه جميعاً وجدان أمة منكوبة فى كل شىء .. وكان رحيل عبدالوهاب آخر نكباتها .

❄ ❄ ❄

حضارة البلاستيك ..

كانت الحضارة فى أزمنة مضت تقاس عظمتها بدرجة بقائها وخلودها ومقاومتها لمتغيرات الزمن .. والطبيعة .. ولهذا اختار فرسان هذه الحضارات أكثر الصخور احتمالا لكى يصنعوا منها الأهرامات ودور العبادة .. وكان التحدى الأكبر للإنسان أن يصنع شيئاً ذا قيمة حتى يضمن له البقاء ، فكانت دور العبادة والتوابيت تتزين بالذهب والفضة والمعادن الثمينة .. ولهذا بقيت رموز هذه الحضارات فى الفنون .. والآداب .. والعمارة .. وبقيت أعمال دافنشى ومايكل أنجلو وبيتهوفن وشيلى وشكسبير والمتنبى والمعرى .. فماذا سيبقى من حضارة هذا العصر ؟

إن حضارة العصر الذى نعيشه الآن تختلف تماماً عن كل الحضارات السابقة .. إنها مجموعة من العلب الصغيرة أو الكبيرة

أستطيع أن أسميها « حضارة البلاستيك » .. لأن كل شيء حولنا من البلاستيك .. الطائرات .. والعمارات . وأجهزة الفيديو .. والكمبيوتر.. والسيارات .. والسفن .. والقوارب .. والأقمار الصناعية وآلات العزف الموسيقي .. والتماثيل والأشرطة .. حتى شرايين القلوب صنعوها من البلاستيك .

وتدخل أحد المحلات الكبرى فى أية عاصمة كبرى لتجد رجلا ثريا يوقع على شيك بمليون دولار اشترى بها مجموعة من الصناديق جميعها من البلاستيك .. وربما باع قبل أن يدخل المحل سبائك من الذهب حولها إلى مجموعة أوراق مالية اشترى بها هذه الصناديق ..

والشيء المؤكد أن هذه الحضارة لن تعيش طويلاً .. كانت الحضارات السابقة تزداد قيمتها كلما مضى الزمن .. كم يساوى هرم خوفو وسور الصين وتاج محل .. ولوحات ڤان جوخ .. ودافنشى ، وتماثيل مايكل أنجلو ، ومخطوطات المتنبى والمعرى ودانتى وشكسبير.. إنها جميعاً لا تقدر بثمن ..

ولكن ماذا يساوى جهاز تكييف تعطل وتوقف إنتاجه فألقاه صاحبه فى الطريق .. كم يساوى جهاز فيديو انتهى عمره الافتراضى .. كم تساوى كاميرا ليست لها أفلام .. أو ساعة بدون بطارية .. أو نظارة بلا زجاج .. ماذا يساوى هيكل طائرة احترق محركها .

كل هذه الأشياء لا تجد من يأخذها بلا ثمن .. ومعنى هذا أن حضارة اليوم ليس لها ثمن . ولن يكون ...

ماذا سيبقى من العمارات البلاستيك الجاهزة بعد مائة عام ؟ . ماذا سيبقى من أجهزة الفيديو .. والكاميرات .. وأجهزة الكبيوتر ، لاشىء غير مجموعة من صناديق البلاستيك .. فكيف يدفع الإنسان عمره وشبابه وماله فى مجموعة من صناديق البلاستيك ابتداء بصندوق القمامة . وانتهاء بالتليفزيون .. !

خسارة كبيرة سوف نكتشفها بعد سنوات طويلة .. حينما نبكى على البيانو الخشبى الجميل .. وأصوات المطربين العذبة .. والساعات العتيقة التى صنعتها أيدى الفنانين .. سوف ننظر بحزن إلى العمارات القديمة وبجوارها تلك الخوازيق الخرسانية التى تحمل هياكل من البلاستيك ...

بعد سنوات طويلة سوف تحرق أشعة الشمس كل ما سجلناه على أشرطة الفيديو التى صنعناها وكتبنا على جدرانها قصة حضارتنا .. وسوف نكتشف يومها ونحن نراجع الشرائط أن الأيام مسحت كل شىء فيها .. وأننا كنا حضارة بدون ذاكرة .. وسوف نبكى طويلاً على عمرنا الذى ضاع فى صناديق البلاستيك .

* * *

العمر الضائع ..

قالت : ماذا تفعل لو عاد الزمان بنا للوراء ورجعنا كما كنا ذات يوم عشاقا .. ماذا تفعل لو عادت الأحلام ترفرف فى سماء أيامنا .. وعاد دفء مشاعرنا يحتوينا من كل الأشياء .. ويأخذنا بعيداً عن هذا العالم الكسيح .. ماذا تفعل لو أننا بدأنا قصة حبنا من جديد ..

قلت : أخطئ لو قلت أننى لم أعد أحبك .. فما زلت تسكنين كل قطرة دماء فى عروقى .. ومازال حبك يتدفق فى كل جزء من كيانى .. ومازلت أراك كما رأيتك يوما .. القلب الطيب .. والإحساس النبيل .. والعمر الجميل .. ورغم المسافات التى فرقتنا .. والظروف التى وقفت بيننا مازلت أحمل لك مشاعر غاية فى النقاء ..

أراك الحبيبة .. والصديقة والرفيقة .. والحلم الشامخ .. والأمل المهزوم .. والثورة والجنون .. والشك واليقين .. وتسألين ماذا أفعل لو عاد العمر بنا للوراء ..

أقول لك : لو عاد هذا العمر لحاولت أن أعيش معك كل لحظة جميلة عشناها معا .. فى أماكنها .. وأزمانها .. وتذكاراتها .. وأمانيها .. ومعاناتها .

لو عاد العمر بنا للوراء .. لتمنيت أن أراك كما رأيتك أول مرة على ضفاف النهر الشامخ العنيد ... وأنا أعيش معك آمال البداية وآلامها .. وأن أقضى معك مرة أخرى تلك الأيام التى سرقناها من الزمن .. ثم جاء الزمن فى ليلة عاصفة ومعه المحضرون والمحامون ورجال الشرطة وألقى القبض على سعادتنا وصادر كل أرصدة أحلامنا وتركنا بلا مأوى فى الطريق . لو عاد بنا العمر للوراء لأحببتك بنفس الطريقة التى أحببتك بها ذات يوم .

قالت : ولكننا تغيرنا ..

قلت : نحن لم نتغير .. ولكن الحياة حولنا تغيرت . سحابات الزمن ظهرت على وجوهنا .. أضاف العمر سنوات لأيامنا ..

أخذت الأيام من عيوننا بعض البريق .. ومن قلوبنا بعض السكينة ..

ولكننا مازلنا نحب ..

كل شىء حولنا لم يعد كما كان يوما .. الألوان والناس .. والأشياء .. والسعادة والحب .. وحتى نقاء الجو لم يعد كما كان .. والأشجار الجميلة التى كنا نتسكع تحت ظلالها عصفت بها أيدى

الجلادين.. والنهر الشامخ الوقور تكاسل وترهل وأصابته الكآبة . نحن لم نتغير .. ولكن الحياة غيرتنا .. كان من الممكن أن أبقى معك وأحبك مائة عام .. ولكن من أين يجيء العمر .. والظروف ... والزمان الذى نتمناه .

كنت أتمنى أن أعيش معك لأننى بعيداً عنك أرى نفسى غريباً بين الناس .. لا أسمع ما يقولون .. ولا يفهمون ما أحكى .. وكلانا فى واد سحيق ..

وأسوأ الأشياء أن أعيش فى غير زمانى .. وأن أعاشر من لايعرف قدرى وأن يشاركنى عدوى غرفة نومى .

ونحن نعيش هذا الزمان .. أقدارنا ضائعة .. وعدونا يشاركنا خبز أطفالنا ، ولبن أمهاتنا .

قالت : لو عاد بى العمر ما اخترت أحدا غيرك ..

قلت : لو كانت هناك بنوك تبيع سنوات العمر ما اشتريت شيئاً غير أيامنا معا .. مازلت أنت واحة تسكن أعماقى .. أعود إليها كلما رأيت نفسى غريبا بين الناس .. ولكننى معك أرى عمرى وأحلامى وجنونى .. أدفع بقية عمرى من أجل يوم واحد نعيشه معا .. ولكن أين أنت .. وأين أنا .. وبيننا يقف زمان قبيح .. ومن فينا يملك أن يسترد عمره الضائع .. ليتنا نستطيع ..

❋ ❋ ❋

تجارة الأحلام

كتبت تسألنى : أنت تكتب لنا عن أحلام وردية .. وترسم لنا من خلال كلماتك إنسانا نقيا لا وجود له بيننا .. ونرى فى سطورك مشاعر ترسمها على الورق من الحب والشوق والوفاء .. تحلق بنا من خلالها فى عالم عجيب لا نراه .. ماذا نفعل ونحن لم نجد فى عمرنا القصير ذلك الإنسان الذى رسمته لنا كلماتك ؟ إنك تلقى بنا فى طريق طويل من الأحلام لا نجد فى نهايته غير السراب .. الرجل الحساس المرهف الذى يطل من كلماتك لا وجود له .. والمرأة الرقيقة الحالمة التى نسجتها من خيالك لا مكان لها وسط هذا الواقع القبيح .. يا سيدى أنت إنسان خيالى ، حاول أن تهبط معنا إلى الواقع الأليم لكى ترى الناس على حقيقتهم .

قلت : إذا كان الليل طويلاً فأنا لست مسئولا عن هذا الظلام ، ولكننى سأظل أحاول حتى آخر لحظة من عمرى أن أوقد وسط هذا الليل شمعة .. وإذا كان الواقع المرير قد فرض على الحياة بشراً أبعد ما يكونون عن الصورة التى أراها للإنسان .. فسوف أظل أحلم بالإنسان كما أحب أن أراه .. وإذا كان القبح يطل من كل شيء حولنا فسوف تظل مسئوليتى أمام ضميرى أن أبحث عن كل ماهو جميل .

لم أكن كاذبا حينما حلمت بإنسان نبيل .. ولم أكن متجاوزا حينما تصورت أن الحياة يمكن أن تكون أكثر جمالا وتناغما .. وليس الذنب ذنبى لأننى حلمت ، ولكنه ذنب الزمن الذى استباح كل الأحلام .. وجعل القبح من سماته والضلال من صفاته .

ولا أظن أن الحياة قد خلت من كل ماهو جميل ونقى ونبيل ، فمازالت تتسلل فى شوارعنا نسمات طيبة من الصدق والنقاء والفضيلة.. ومازالت أشعة الشمس تخترق سحابات الدخان وتصنع نهاراً، ومازال هناك أناس طيبون يعيشون حياتهم بكل الطهر والبراءة .. ومازال هناك أناس عاشقون يعرفون طعم الأشواق .. ويدركون قيمة المشاعر .

قالت : ولكننى لم أجد نموذجاً واحداً من هؤلاء الذين تتحدث عنهم ..

قلت : ليس معنى هذا أنهم جميعا رحلوا .. فمازال منهم الكثير.. وأنا على يقين أنك ستجدين يوماً هذا الإنسان الذى تبحثين عنه .. قد يحتاج الأمر منك صبراً جميلاً .. وقد يتطلب سنوات أطول بقليل من عمرك الصغير .. ولكننى على يقين أن هذا الإنسان سوف يجىء يوماً ويتسلل كالضوء فى غيابات شكك وسوء ظنك بالحياة وبالناس .

مازال يقينى أن الحياة قادرة على أن تصون جوانب الجمال فيها حتى ولو انتصرت فى بعض الأحيان جحافل القبح .. مازلت أرى أن نماذج الخير مازالت بيننا ، ولكن المشكلة أن قدرتنا على الصبر صارت ضئيلة للغاية .. نريد أن نجد كل شىء بين أيدينا فى لحظات .. وتصورنا أن إيقاع الحياة يمكن أن يسرى على المشاعر ، فكما نفتح الفيديو ونشاهد الفيلم ، أو نجرى مكالمة تليفونية أو ننطلق بسيارتنا ، تصورنا أن ذلك يمكن أن يتم فى العلاقات الإنسانية فنجد كل ما نريده متاحا أمامنا .. والحقيقة أن الناس معادن ، ما أكثر الرخيص منها وما أقل النادر .. ومن بين آلاف العملات المزيفة بينهم سوف تجدين إنساناً نقيا صادقا أصيلا ..

وأنا على استعداد أن أدفع نصف عمرى فى رحلة بحث عن إنسان أريده ، ولا أضيع لحظة واحدة من عمرى مع شىء لا أريده .. الأحلام العظيمة لايمكن أبداً أن نجدها لقيطة على أرصفة الشوارع ، إنها تسكن أبراجا وتحتاج إلى جهد كبير .

إن كلماتى التى تعتقدين أنها ألقت بك فى عالم من الأوهام والصور الجميلة .. كانت صادقة تماماً .. وأنا لا أرسم أوهاماً ولكننى أصنع حلما .. وسوف يظل هذا دورى ورسالتى حتى لو انفض الجميع من حولى وبارت كل تجارتى .

وسوف تبعثين لى يوماً برسالة أخرى تقولين فيها : لقد صار الحلم حقيقة ، عندما تجدين ذلك الإنسان الذى رسمته لك كلماتى .. يومها سوف تدركين أنه لم يكن مجرد وهم .. ولكنه أصبح فى عيونك أكبر من كل الحقائق .

❄ ❄ ❄

نحن .. فى هذا الزمان

سألنى صديقى : لماذا نحن غرباء فى هذا الزمان ؟

قلت : من عاش الجمال يعز عليه أن يرى نفسه مستباحا فى عالم من القبح .. ومن عرف الفضيلة يموت ضميره حزنا وهو يمارس الرذيلة .. ونحن عشنا جزءا من الزمان الجميل .. رأينا ملامحه .. واستمتعنا بدفء مشاعره .. وعشناه ذكرى .. ولهذا أصبحنا غرباء فى زماننا . تخيل نفسك وأنت تسمع ضجيج الأغانى فى هذه الأيام ، والذين يهرولون على المسارح وأمامهم مجموعة من الصبية العابثين يقفزون هنا ويجرون هناك ، ويسمون هذا العبث وهذا الضجيج أغنيات شبابية .. أصوات قبيحة .. وأداء مريض .. وكلمات هابطة ..

ومن بعيد يطل عليك صوت أم كلثوم وأسمهان وفيروز وعبدالوهاب وعبدالحليم وفريد وليلى مراد ونازك .

تخيل نفسك وأنت تشاهد الآن أفلام العرى والمخدرات والشم وأمامك يطل من بعيد وجه الرائعة دائما فاتن حمامة ونجوم العصر الذهبى للسينما المصرية يوم أن كانت مدرسة للسلوك والأخلاق والقيم.. تخيل نفسك وأنت ترى يوسف وهبى يصول ويجول على المسرح ثم نرى الآن مجموعات المهرجين والمنتفعين وأدعياء الفن .. تخيل نفسك وأنت ترى قصائد شوقى وحافظ وجبران ، لكى تملأ الأرض حزنا على ما تقرأ الآن من هزل رخيص يسمونه قصيدة النثر ..

تخيل نفسك وأنت تقرأ مقالات الأفغانى ومحمد عبده والعقاد وطه حسين وهيكل والمازنى وعبدالرازق ولطفى السيد وقاسم أمين والمنفلوطى والبشرى ، وما تقرأ الآن من مهازل الصحافة فى عالمنا العربى.

تخيل نفسك وأنت تجلس مع مشرفة .. والمفتى .. وعلى إبراهيم.. وأنت تجلس الآن مع تجار الكلى البشرية ..

تخيل نفسك وأنت فى رحاب سعد زغلول .. ومصطفى كامل .. والنحاس ومحمد فريد ، هؤلاء الشرفاء الذين دفعوا الثمن مالا .. ودماء .. وعمرا .

تخيل نفسك وأنت تشاهد شباب مصر يتساقط فوق كوبرى عباس ، يحمل علمها المضىء وتختلط دماؤه الزكية بمياه النهر العظيم فيندفع فى شموخ ليخلق زمانا جديداً وإنساناً أكثر وعيا وإيماناً . وأنت ترى نفس الشباب اليوم يتسكع فى النوادى بلا هدف ولا قضية .

تخيل نفسك وأنت تجلس في رحاب الأزهر الشريف وأمامك الإمام محمد عبده والشيخ شلتوت .. وتجلس فى رجاب دار الإفتاء وأمامك الشيخ أمين الخولى .. تخيل نفسك أمام طلعت حرب الاقتصادى العظيم وأنت الآن أمام سماسرة المال العام .. كيف اجتمع كل هؤلاء العباقرة فى زمان واحد .. وأى زمان هذا الذى أعطى مصر كل هذه العطايا .. وكيف أنجبت كل هذه الأسماء فى أقل من نصف قرن من الزمان .. يستطيع الإنسان أن يضيف إلى هذه الأسماء عشرات الأسماء الأخرى التى لاتقل دوراً وقيمة ورسالة فى جميع المجالات .

هذه الأرض الخضراء المثمرة كيف أصابها البوار ؟ .. وكيف استبدلت أشجار النخيل والبلح « الزغلول » بالكانتالوب ؟ .. وكيف استبدلت القمح بالفراولة .. والقطن بالخوخ . وقوت الشعب باللب وعباد الشمس ؟ .

هذا الزمن الخصب المعطاء كيف أصابه الضمور وتراكمت عليه العلل ..

وأطاحت بأشجاره الأعاصير والرمال ؟ ..

وتسألنى يا صديقى : لماذا نحن غرباء ؟

لأننا مازلنا نتمسك بشىء قديم اسمه الأصالة .. ومازلنا نبحث عن شىء توارى اسمه القيم .. ومازلنا نفتش بين الأطلال عن شىء جميل اسمه الرزق الحلال ..

مازال فى قلوبنا شيء من الوفاء .. وفى سلوكياتنا شيء من النبل وفى أخلاقنا شيء من الشهامة .. وفى أعماقنا شجرة قديمة اسمها الكرامة .. لا أقول أننا لم نعرف الخطيئة .. ولكننا لم نهجر الفضيلة..

لا أقول أننا صمدنا أمام العواصف ، لكننا لم نركع أمام الطاغوت.. ضاعت منا بعض الأشياء ولكن بقيت فى داخلنا أفضل الأشياء .. نحاول أن نبذر فى الأرض الخراب شيئاً من الأمل .. ونحاول أن نبنى بين الأطلال زماناً جديداً ..

لا أقول أننا نعيش خارج زماننا .. ولكننا ندرك بكل الوعى ماذا فعل بنا هذا الزمان .. وإذا كنا قد خسرنا شيئاً فإننا حتى الآن لم نخسر كل شيء .

* * *

ما الذى يقتل الحب ..!

قالت : ما الذى يقتل الحب .. ؟

قلت : أشياء كثيرة أخطرها الشك .. والإهمال ..

فالشك مثل السوس الذى ينخر فى جذع الشجرة حتى يسقطها مهما كانت ضخامتها وعمق جذورها .. ومع بذور الشك تغلف حياتنا ظلال من عدم الثقة .. وحينما نفقد ثقتنا فيمن نحب فإننا نضعه فى غير مكانه القديم ، وتتراجع أماكن استقبالنا له من الصالون .. إلى حجرة الضيوف .. إلى البدروم .. ويكون الحب أول الضحايا ..

قالت : وماذا عن الإهمال ؟

قلت : الحب مثل الأشجار تماماً .. قطرة ماء تحييها .. وعطشة صيف تقتلها .. والفرق بين شجرة خضراء جميلة وأخرى تساقطت أوراقها هو قطرة ماء تنقذها من الموت .. وكذلك الحب تقتله كلمة ..

وربما تبعثه من قبره كلمة .. قد تأتيك مكالمة تليفونية بسيطة فى ساعة احتياج تعيد كل الأشياء إلى أماكنها .. وقد تفتقد كلمة من إنسان تحبه وتتمنى من أعماقك لو أنه قالها .. ولكننا بكل الحزن نكفن الميت فى لحظة صمت أبدية .

ولذلك فإن الإهمال هو أخطر أعداء الحب .. وأسوأ أنواع الإهمال أن نطمئن إلى الأشياء .. وأن تزداد ثقتنا أكثر من اللازم فى عمق مشاعرنا .. وفى مشاعر من نحب .. أن نعتقد أن ما بيننا أكبر من أن يؤثر فيه أى شىء .. وأن الروابط التى جمعتنا أكبر من كل الأشياء حولنا ، هذا إحساس جميل ولكنه قد يكون بداية الخطأ .. فالخطر أحياناً يجىء من أكثر الأماكن أمنا .. وقد يموت الحب ونحن فى أوج إحساسنا به .. ومن الخطأ فى الحب أن نتصور أننا وصلنا إلى نهاية المطاف .. لأن ذلك يعنى أن نبدأ رحلة العودة .. وأننا لن نصل إلى أبعد مما وصلنا إليه .

وهنا يتساقط الإحساس داخلنا .. وتذبل أشجار المودة .. وتغيب حلاوة الأشواق .. ونكتشف أن مساحات الصقيع امتدت فى أعماقنا وأن الثلوج تغطى كل شىء .

الحب يحتاج إلى اختبارات يومية .. إنه يحتاج إلى تمرينات دائمة لكى يحافظ على لياقته البدنية .. إذا نام الإنسان فى بيته شهراً فلا بد أن يمر بمراحل مختلفة للعلاج الطبيعى ، لكى يستعيد لياقته ..

كذلك الحب .. لابد أن نحافظ عليه دائماً من كل مظاهر الضمور ، وشلل الأطفال والأزمات الصحية الطارئة .

قالت : ومن أين يجيء الشك ؟

قلت : من أشياء صغيرة قد لا ندركها في تصرفاتنا .. أهمها الصدق ..

إن الصدق هو أقرب الأشياء إلى كشف الحقيقة .. والحقيقة قد تؤلم ولكنها لا تضر .. ولكن الكذب يؤلم ويضر ويهدم ..

فالكذب وعدم الوضوح هما الطريق إلى الشك وعدم الثقة ..

إنني أفضل أن أكون صادقاً حتى ولو أخطأت ، من أن أكون كاذبا وأنا على صواب .

الصدق هو الضوء الذي يكشف لنا كل الأشياء ، ومن الصعب أن تظهر أشباح الشك في ضوء النهار .

قالت : والإهمال ؟

قلت : يأتي حينما يشعر طرف أنه ملك الآخر ..

والملكية قد تكون بالإحساس .. وقد تكون بورقة المأذون ..

والذي يملك بالإحساس تحكمه عوامل الاختيار .. ومن السهل جداً في الحب أن يختار متى يبقى .. ومتى يرحل ، فليس في الاختيار شيء مفروض .. وليست هناك ملكية أبدية في الحب .. بل إن أكبر

خطايا المحبين أن يحاول أحدهم إثبات ملكيتـه فى الشهر العقارى ، لأنها ملكية لا تقوم على أساس غير الإحساس .. ولا أحد فى العالم يملك مشاعره ..

أما ملكية المأذون فهى ملكية وهمية .. لأن الإنسان يستطيع أن يشترى أى شيء : بيتا أو عقاراً .. ولكنه لا يستطيع أبداً أن يسكن قلبا بدون إذن صاحبه .

❄ ❄ ❄

لا شىء غير الحب

أنظر دائماً إلى عمرى بين زمانين .. زمان أحببت فيه .. وزمان آخر خاصمنى الحب فيه .. وأشعر أن الفرق كبير جداً بين قلب ينبض وقلب آخر عرف السكينة واستراح .. بين عروق تتصارع شوقا .. وأخرى هدأت فى أماكنها .. بين أشواق تعصف بكيانى وأشعر معها أننى مازلت أحيا . وهدوء يذكرنى بليالى الصقيع الموحشة حيث لا شىء غير الصمت .

وعندما نحب تحملنا مشاعرنا فى كل اتجاه .. نتمزق ألما .. ونضيع خوفا .. وتزداد مساحات الحيرة فى أعماقنا . وتعصف بنا رياح الشك والغيرة والجنون .. ونتمنى فى داخلنا لو استرحنا من هذا الحب وطوينا عذاباته .. ورضينا بليالى الوحشة والسكون . وعندما تهدأ

الأمواج .. وتسكن الرياح .. وتنام الشواطىء .. نفتش حولنا ونشتاق يوماً واحداً تثور فيه الأمواج مرة أخرى ويعود البحر الهادئ إلى صخبه القديم .. ونتلفت حولنا لعل الرياح تبدد ليل السكون الطويل .. ولعل الشواطئ الخالية يعود لها سكانها الراحلون ..

ونبحث عن الحب فلا نجده .. ونظل نسأل عن هذا الزائر الذى فارقنا فى لحظة جنون ولم نسمع عتابه ، ونتمنى لو أنه عاد مرة أخرى بكل أحزانه .. وجنونه .. وشططه .

ولكنه يأبى أن يعود .

إن الحياة هى أن نحب .. والموت أن يهجرنا الحب .

والموتى مستريحون فى كل شىء من كل شىء .. ليس لديهم ما يزعجهم ولكنهم ميتون ، وهذا هو الإنسان حينما يعيش بلا حب ..

صمت أبدى .. تبدو الحياة حوله رتيبة فى كل شىء .. يجلس على كرسيه يتناول القهوة والصحيفة والتفاهات اليومية .. ويصافح فى كل يوم سأمه .. وينظر فى المرآة ، وترتسم على وجهه كل يوم مساحة جديدة من الوحشة والوحدة والسكون .. ويعتاد على كل هذا ..

وحينما يحب .. يشعر أن لون جلده يتغير كل يوم .. أن بريق عينيه يزداد اتساعاً .. وأن تجاعيد الزمن ترسم على وجهه لوحة سيريالية بارعة الجمال .. وأن الشعيرات البيض تتناثر مثل النجوم على

رأسه .. وأن قلبه فى كل يوم يغير دماءه ويأتى بدماء جديدة لا يعرف مصدرها .. مثل الأنهار العريقة يأتيها الفيضان من حيث لا تدرى ..

يشعر الإنسان حينما يحب أن قدرته أكبر من مشاكله .. وأن عمره أطول من زمانه .. وأن اللحظة من عمر الحب تساوى كل الأزمنة ..

ولو كنت أملك قدرى لاخترت أن أعيش كل عمرى عاشقا .. فليس العمر بمساحاته الشاسعة ، ولكن العمر بالمساحات الخضراء فيه .. لا يهمنى أن أملك ألف فدان من الأرض الخراب ، ولكننى أريد بضعة أمتار من الأرض الخضراء المثمرة .. لأن الذين يعشقون الخرائب يصبحون مثل الفئران تسكن جحورها كلما ظهرت أشعة النهار ، ولكن العصافير تنطلق فى غنائها كلما أشرقت بشائر الصباح ..

الناس بغير الحب موتى .. والحب بغير الناس طفل لقيط .. وما أكثر الموتى الأحياء فى زماننا .

لاشىء يخرجنا من ضلال زماننا غير الحب .. وليتنى أجد من يسمعنى .. ليتنى ..

* * *

كيف ضاع الصدق منا ؟

قالت : أشتاق صدق مشاعرك ..

قلت : لا أملك الحق فى أن أقول شيئا غير ما أشعر به .. وأنا أعترف أننى لم أعد ذلك الطفل الصغير الذى يرتمى بكل براءته بين يديك .. لقد أصابته أمراض الشيخوخة وغاب بريق عينيه .. هذا الطفل الذى كان يجىء إليك متلهفا ومعه كل أشواق الدنيا تكسرت أحلامه الصغيرة .. لا أستطيع أن أعيش معك لحظة زيف واحدة .. كيف أقول أننى مازلت أحبك وأكوام من الجليد تتجمع فى أعماقى .. كنت يوماً أحبك ، وكنت أرى العالم كله من خلالك .. وكانت أجمل لحظات صدقى مع نفسى تلك التى أعيشها معك ..

فماذا أفعل الآن يارفيقتى وقد أصبح الحلم رماداً .. وأصبحت الذكرى كابوساً .. وأصبح الشوق ضيفا ثقيلا ..

ماذا أفعل وأنا أراك تتراجعين بعيداً ويخبو وجهك الجميل وتظهر على أطلاله سحابات من الدخان الكثيف ، فلم أعد أسمع غير صوتك القادم من بعيد يسألنى أين صدقى ؟ لو كنت مكانك لسألت نفسى كيف ضاع الصدق منا ؟ وفى أى طريق سقط ؟ وعلى أى درب تعثرت خطاه ؟

لقد غاب وجهك منى خلف سحابات اللامبالاة .. وعدم الإحساس بالمسئولية .. وتصورت أن هذا الحب شىء نستدعيه حينما نريد .. ونبعده حينما نرغب ..

وكنت أجد نفسى فى أحيان كثيرة أفتش عنك وأنا أحوج ما أكون إليك فلا أجد حولى غير الوحدة والسكون . غاب وجهك حينما كنت أرجوك أن تترفقى بهذا الحب الصغير حتى لا يضيع منا فى الزحام .. ويوما رأيته يسرع الخطى ويمضى فى الشوارع المكدسة بالبشر ومن يومها لم تره عيناى ولم أعرف له طريقاً وضاع منا فى الزحام .

ولقد غاب وجهك عنى يوم أن كانت الكلمات تموت فى شفتيك وأنت تتحدثين .. والإحساس يتوارى فى عينيك وأنت تكذبين .. وكنت واثقة أن حبى لك أكبر من كل الأزمات .. ولكننى اكتشفت أن الحب يحمل جسداً رقيقاً ضعيفاً تقتله كلمة . وتذيبه لفحة صيفية حارقة .

كنت أتمنى أن أبقى معك دائماً ، وأن أعيش معك ألف لحظة صدق .. ولكن صدقى اليوم يعاندنى ويرفض أن يتبعنى .. كنت أريد أن أعيش هذه اللحظة معك الآن وأنا أودعك ، ولكننى كنت صادقاً معك فى البداية ولا أحب أن أكون كاذباً حتى فى لحظة الوداع .

❊ ❊ ❊

امرأة هوايتها الرحيل ..

قالت : انشغلت عنك بعض الوقت .. وجئت لكى أستعيدك مرة أخرى .. شغلتنى عنك الحياة فى الفترة الماضية .. همومها ومتاعبها استنزفت وقتى وعمرى ومشاعرى .. وجئت الآن ومعى أشواق الدنيا .. أريد أن نعوض مافاتنا .

قلت : هل تعلمين كم من الوقت انشغلت عنى ؟

قالت : عام واحد فقط شغلتنى فيه الدنيا عنك .

قلت : لا أتصور أن يوقف الإنسان نبض قلبه عاماً ويعود مرة أخرى للحياة .. فكيف بالله استطعت أن تتخلصى من حبى عاماً كاملاً؟ كيف غابت عن عينيك ملامحه وأيامه ؟ وكيف استعدت الآن ماتوارى عاماً كاملاً فى وجدانك ؟

هذا النوع من الحب غريب جداً بالنسبة لى . فأنا لا أرى الحب شريط تسجيل أسمعه بعض الوقت وأبحث عن غيره .. يوم أن قررت تخصيص وقتك وحياتك لأشياء أخرى فأنت اخترت حياتك بدونى .

قالت : ولكنى مازلت أحبك .. لا تتصور حجم معاناتى فى هذا العام الذى ابتعدت فيه عنك .

قلت : كان من الأفضل أن أشاركك هذه الهموم وأن نعيشها معا.. إن أجمل ما فى الحب المشاركة .. إن رغبتك فى عدم إشراكى معك فى همومك يعنى أننى شىء عابر فى حياتك .. مجرد لحظة جميلة كانت تسعدك وشغلتك عنها أشياء أخرى أهم .. لو كنت شيئاً عميقاً داخلك ما انتزعتك منى هموم الدنيا .. ولكنك ترتبين حياتك حسب برامج محددة . . وأنا لا أطيق القلوب المبرمجة . إنها تحب حينما تريد .. وتسافر حينما ترغب .. وإذا أحبت فإن الحب عندها رحلة صيفية قصيرة سرعان ما تنتهى وسط دوامات الملل . وهذا نوع من النفوس القلقة تريد كل يوم شيئاً جديداً .. قد لايكون حبا .. ولكن المهم أن يكون هناك شىء جديد ، إنها فى حالة رحيل دائم .. وإذا سكنت بعض الوقت يكون ذلك مجرد راحة قصيرة تعود بعدها للسفر .. وقد كانت أيامنا معاً مجرد محطة قصيرة فى رحلتك مع الحياة .

لقد كنت أشعر دائماً أنك تبحثين عن لحظة ولا تبحثين عن عمر .. وأنك تريدين ساعة ولا تريدين زماناً .

وجئت الآن بعد أن فرغت من همومك وربما جئت تنسين الهموم فى لحظة حب عابرة .. وإن كنت أعتقد أنه ليس لديك من الهموم ما يؤرقك ويشغل بالك ، ولكن لديك رغبة شديدة فى تغيير الأشياء .. من الصعب عليك أن تجلسى فى عش واحد أياماً طويلة .. لأنك امرأة تعشقين الرحيل .

قالت : دعنا نحاول أن نستعيد زماننا ..

قلت : بعد عام كامل من الغياب نسيت فيه كل شيء .. نسيت الحب وذكرياته .. والأمل والأيام والعمر الجميل .. جئت الآن لكى نحاول أن نستعيد الشريط .. فمن أين نبدأ .. من أول القصة أم من نهايتها .. وبأى لحظة حب تريدين .. وكيف أضمن ألا يكون هناك عام آخر من الرحيل يقف فى انتظارنا خارج الباب نبدأ معه رحلة اغتراب جديدة .

أنا لا أتصور الحب فصلا فى رواية أو جزءاً من قصة يمكن الاستغناء عنه ؛ لأن ذلك يعنى أنها رواية رديئة وقصة ساذجة .

لا أستطيع أن أختصر سطرا واحداً حينما أحب .. لا أستطيع أن أقتطع لحظة ، فما بالك وقد اقتطعت من قصة حبنا عاما كاملاً ..

أنا لا أصلح لأن أكون مجرد لحظة فى حياة امرأة .. أريد امرأة أشعر معها أنها نهاية سفرى وآخر نقطة فى الكون ..

وأرفض بشدة أن أكون مجرد محطة يمضى بعدها القطار يتسكع فى دروب الحياة باحثاً عن محطة أخرى .

حرية العقل .. وحرية المرأة

قالت : لم تعد أفكارك الآن تعجبنى .. أصبحت تقليديا أكثر من اللازم .. تدافع عن المرأة الأم أكثر مما تدافع عن المرأة الدور والعمل والرسالة .. تتحدث عن جدتى وجدتك والزمان الذى مضى .. وترفض أن تبارك حرية المرأة فى زماننا .. كانت أفكارك قديماً تعجبنى .. كنت أكثر تمرداً .. وأنا أحببت فيك هذا الإنسان الثائر المجنون المتمرد .. ولا أحب أن أراك محافظاً كما أنت الآن .

قلت : أما أننى كنت متمرداً وأصبحت الآن محافظاً فهذا غير صحيح ، فما زلت على تمردى القديم .. ولكننى رغم تمردى لا أقبل أن أغالط الحقيقة ، وخاصة إذا كانت الشواهد تؤكد ما نقول ..

ليس تخلفاً منى أن أدافع عن الأمومة .. فليست هناك رسالة فى الدنيا أعظم من دور الأم .. وأنا أدافع عن حرية المرأة .. بمفهوم واضح

ومحدد ، وهو أن تحرير عقلها لايعنى بالضرورة أن تحرر جسدها .. حرية العقل استنارة .. وحرية الجسد دعارة .. وشتان بين هذا وذاك .

والمرأة التى أنجبت طه حسين والعقاد بدون شهادات جامعية كانت امرأة واعية ومستنيرة بالفطرة ..

والفطرة أحياناً تكون منجماً للتجربة الإنسانية أكبر بكثير من كل جامعات الدنيا .. قد يحصل الإنسان على أكبر الدرجات العلمية ولا يتجاوز حدود جهلة بخطوة واحدة .. وقد تحصل المرأة على أعلى الدراسات وتفشل فى دورها كأم .. ولماذا نحاول أن نضع هذا التعارض بين المرأة الأم والمرأة العمل والرسالة .. ومن قال أن الأمومة ليست رسالة.. لست ضد عمل المرأة بل إننى أعتبر ذلك حقا لها .. وليست كل امرأة لا تعمل غيرة مستنيرة ، وليست كل من تعمل هى المستنيرة .. هذه حدود وفواصل غير موضوعية ويجب أن تكون نظرتنا للأشياء أكثر عمقاً وشمولية .

قالت : ولكن المجتمع يقف فى وجه المرأة .. إن الرجل يحاربها

قلت : كيف يقف الرجل ضد المرأة .. إنها تطارده فى كل سنوات عمره ، ويحمل لها مشاعر الدنيا بكل تناقضاتها واختلاف درجاتها .. هى الأم التى تحمل طفولته .. هى الزوجة التى تشاركه متاعب الرحلة.. هى الابنة التى يرى من خلالها الكون كله .. وقد تكون المشكلة أن الرجل يشعر دائماً أنه مسئول عن المرأة .. عن حمايتها وأمنها .. هو

مسئول عن أمه وزوجته وابنته على امتداد مراحل عمره . ولماذا نفهم الحماية على أنها وصاية .. ولماذا نترجم الرحمة على أنها تسلط .. ولماذا نقول إن الرغبة فى الأمن وسيلة من وسائل القهر ..

ليس التحرر أن تترك الأم أبناءها وتقضى يومها كاملا متنقلة بين النوادى .. وليست الاستنارة أن تتنكر لدورها وتبحث عن دور جديد ، وخاصة إذا كان هذا الدور يمثل قمة العطاء الإنسانى فى أكمل صوره .

ماذا يبقى للأم حينما تترك أبناءها بالأيام الطويلة وهى لا ترى أحداً منهم ؟! .. وبعد ذلك نقول إن الأجيال الجديدة ضاعت فى متاهات الانحراف والشم ورفاق السوء .

إننى أحترم المرأة التى تعى دورها ورسالتها .. من حقها أن تعمل ولكن من واجبها أن تظل دائماً الأم الرحيمة .. من حقها أن تتحرر .. ولكن بشرط أن تبقى الحدود وتحترمها .

من حقها أن تطالب بحقوقها .. ولكن لا ينبغى أن تطاردها عقد الماضى بأن الرجل يعشق التسلط والقهر ..

ليست القضية رجلاً وامرأة .. ولكن القضية : من فيهما الأقدر على العطاء ، وسوف يظل العطاء هو المنطقة التى تعكس أساس العلاقة بين المرأة والرجل ، وأيهما أكثر تأثيراً وأعمق دوراً .

❄ ❄ ❄

عشاق الحياة

أربع ساعات كاملة نزلت فيها ضيفا على نادى سيدات ليونز الجيزة .. فوق سفينة جميلة على ضفاف النيل ، كان بيننا هذا الحوار ..

قالوا : من أقدر على الحب المرأة أم الرجل ؟

قلت : ليست هناك مقاييس للحب بين الرجل والمرأة .. قد يكون استعداد المرأة للحب بحكم تكوينها وظروفها أكثر من الرجل .. فهى تجسد الأمومة أنبل المشاعر الإنسانية وأعمقها .. ولكن المرأة ليست بالضرورة أكثر حباً من الرجل فى كل الحالات .. إذا أحب الرجل بصدق فهو الأعمق والأكثر عطاء .. والمهم ليس المرأة أو الرجل ، المهم هو الإحساس .. ونحن جميعاً شركاء فيه .. وما يميز إنساناً عن آخر هو درجة الإحساس عنده .

قالوا : ولكن مشاعر الحب تراجعت فى أعماق الرجل الآن .. مات فيه العاشق القديم .

قلت : هذا رأى خاطئ .. فالرجل مازال محبا كما كان .. مازال هناك الشاب الذى يحب بصدق .. ومازال هناك الآباء الذين يعطون العمر والصحة من أجل استقرار أسرهم وسعادة زوجاتهم .. ومازال هناك من يسافر ويغترب بحثاً عن مستقبل أفضل لأبنائه وزوجته . قد تظهر أحياناً بعض النماذج القبيحة ولكنها لاتمثل أبداً وجه الحياة .

ليست المشكلة أن الرجل لم يعد قادرا على الحب ، ولكن المشكلة أن زماننا ليس مناسبا للحب . أعباء الحياة ومشاكلها ومتاعبها وحروبها ودمارها وانكساراتها .. كلها أشياء تقف فى وجه الحب .. فالمشكلة ليست فى القلوب التى أصابتها أمراض الشيخوخة المبكرة ، ولكن المشكلة أن الزمان بظروفه وأحواله يحاول أن يقتل مشاعر الحب فينا .

قالوا : أيهما أفضل ، لحظة حب يبثها الشاعر أم قصيدة حب يكتبها ؟

قلت : الأجمل أن يعيش اللحظة ويكتب القصيدة .. وإذا لم يكن هذا متاحا فأنا أفضل أن أعيش اللحظة لأننى لا أملك أن أعيدها .. ولأن لحظة حب صادقة بكل قصائد الدنيا .. يمكن للشاعر أن يستعيد القصيدة ويطاردها ، ولكنه لا يستطيع أن يسترد يوماً واحداً تسرب من بين يديه ومضى ..

قالوا : وهل وراء كل قصيدة فى حياة الشاعر قصة حب ؟

قلت : هذا ظلم كبير .. لأن معنى هذا أن تتحول حياة الشاعر إلى حقل تجارب .. والشاعر قد يكتب قصيدة من خلال قصة عاشها غيره .. وليس كل ما يكتب الشاعر قصصا من الحب عاشها .. وليس معنى هذا أن كل ما كتب الشاعر من الخيال .. فى الشعر شىء من الحقيقة .. وأشياء من الخيال .

قالوا : لماذا نحب أحزاننا أكثر ؟ هل لأن لحظات السعادة دائما ما تكون قصيرة ؟

قلت : يستطيع الإنسان أن يزيف وجه السعادة ولكنه لايستطع أبداً أن يزيف لحظات الحزن .. والحزن فى رأيى أنبل من السعادة وأكثر عمقا داخل الإنسان .. أما أسبابه فنحن نعرفها .. يكفى أن يقف الإنسان على محطتين من حياته لايملك فيهما شيئاً ، وهما الميلاد والموت.. وبعد ذلك يحزن كما يشاء .

عندما تجىء لحظة سعيدة أفضل أن أعيشها ..

أما لحظات الحزن فإن أقرب الأشياء إليها الأوراق والقلم ..

قالو : كيف يضمن الإنسان بقاء الحب .. ؟

قلت : أن يشعر دائماً بالمسئولية .. فالحب كائن حساس للغاية ، نوبة برد تقضى عليه .. وقليل من الدفء والرعاية يعيد له الحياة ...

يجب أن يتعامل الإنسان مع من يحب بلهفة أول لقاء ودمعة آخر وداع .. وأن تظل دهشتنا ولهفتنا وبراءتنا .. وأسوأ ما يقتل الحب الاعتياد عليه .. وأجمل ما يعيد له حيويته إحساس دائم بالخوف من أن ينتهى هذا الشىء الجميل .

قالوا : زمان الحب انتهى ولم يبق منه غير كلماتكم وأشعاركم ؟

قلت : من قال هذا ؟ قد تطغى بعض الأشياء على بعضها .. وقد يتصارع الناس حول المال والمناصب والشهرة واللحظات القصيرة العابرة ، ولكن الحب شىء آخر .. للنجاح طعم آخر مع الحب .. وللسعادة مذاق آخر مع من تحب .. وللعمر قيمة أخرى مع الحب ، وللحلم ألف مكان فى قلوبنا إذا كنا نحب .. الحياة مع الحب شىء لايعرفه إلا عشاق الحياة .

❋ ❋ ❋

امرأة لم تعرف الحب

قالت : لماذا تخاف منى ؟

قلت : لأننى أخشى الاقتراب من المرأة المزاجية .. أحوالك تذكرنى بمناطق غريبة فى البحار تغلب عليها العواصف ولا تهدأ فيها الرياح.. وأمواجها دائماً صاخبة وثائرة .. والبحارة لا يعرفون ثورتها وزمان جنونها .. ولهذا يفضلون الابتعاد عنها .

أنت يا سيدتى امرأة لك حالات غريبة ..

أراك أحياناً قطة وديعة تريد أن تنام بين يدى ..

وأراك أحياناً مارداً جباراً لا أرى له وجهاً ولا ملامح..

أنت بركان تنبت على شواطئه الأشجار .. وإذا اقتربت من الأشجار طافت فى عينى أشباح البركان الثائر .. وإذا سقطت فيه وضعت نهايتى بيدى ..

إننى أخافك كثيراً .. فأنت امرأة جميلة ورقيقة وحالمة .. يقع فى شباكك الكثيرون وأنت تجلسين من بعيد تراقبين الضحايا واحداً واحداً يتساقطون .. وأرى ابتسامة غريبة على وجهك ..

ولا أدرى لماذا تضحكين ..؟.

هل تضحكين من سذاجة الرجال الذين يسقطون كالعصافير ؟

أم تضحكين لأن هؤلاء جميعا لا يملأون فراغ يوم واحد من أيامك؟ أم تضحكين لأنهم جيمعا تعساء بحبك وأنت سعيدة بغبائهم..؟

أنا على يقين أنك تضحكين أحياناً على نفسك ، فرغم كل هذا الضجيج تنامين يا صديقتى فى آخر الليل وحيدة غريبة تائهة وسط دوامات الصمت والخوف والوحشة ..

ترى من فيكم الخاسر ؟

رجال عشاق .. أم امرأة لاتستطيع أن تعشق ..

رجل ينام على ضوء امرأة احتواها فى عينيه .. أم امرأة تحاصرها أشباح الوحدة والفراغ .. ؟

قالت : أنا سعيدة بحياتى .. لا أريد رجلا يحاصرنى .. يدمرنى.. ويأخذ كل شىء ويلقينى .. يكفى أن أرى الجميع حولى ولاشىء يبقى منهم بعد أن ينطفئ الضوء فى بيتى ..

قلت : لو أنك أحببت لاكتفيت برجل واحد يغنيك عن كل هذه الأشباح التى تحاصر أيامك ..

هذا الضجيج الكاذب الذى تسجنين نفسك فيه أسوأ أنواع المعتقلات البشرية .. أن يجد الإنسان نفسه محاصراً بلا جدران ومسجوناً بلا سجان .. تلتف حول رقبته آلاف الأكاذيب .. وعشرات الأقنعة .. ويحمل فى حقيبته مئات الوجوه المستعارة .

أريد وجها واحدا يصافحنى بحرارة .. ويدا واحدة تحتوينى فى ود وسماحة .. هذا يغنينى عن كل نساء الأرض .

أنت ياسيدتى امرأة لم تعرف الحب ، ولو جربت الحب مرة ما أغراك كل هذا الزيف ..

إن حياتك تذكرنى بالفنادق الفخمة ذات الخمسة نجوم .. أناس يدخلون .. وأناس يخرجون .. والجميع مسافرون ..

هذا يجىء وهذا يرحل .. وليس بينهم جميعا غير حجرات ليست لها ملامح وليس فيها نبض ولابريق ..

كل الأماكن تتساوى ما دمنا على سفر ..

والذين أدمنوا السفر لايعنيهم شىء غير مكان يلم بقاياهم بعد يوم طويل .. إن الأمر عندهم لا يتجاوز الرغبة فى حجرة ينامون فيها..

كما نام فيها غيرهم .. وكما سينام فيها كل من سيجيء يوما بعدهم .

أنت ياصديقتى فندق فخم كبير ، يرحب بالزوار من كل أرض ، وبالضيوف من كل وطن ، ويعانق مع ابتسامته الجميلة كل زائر جديد..

وأنا لا أحب أن أسكن الفنادق .

❄ ❄ ❄

امرأة هاربة من جرح

قالت : لا أريدك أن تسألنى عن نفسى .. أنا لا أحب أن أعرف عنها شيئاً ، فأنا امرأة هاربة من نفسى إلى الناس .. أحب الناس كثيراً.. أشعر بينهم أننى أنسى كل شىء فى حياتى .. هذا الزحام يشدنى دائماً إليه .. لا أريد أن أترك لحظة واحدة من عمرى تضيع منى بدون الناس ، أريد أن أعيش العمر كاملاً طولاً وعرضاً .. أذوب فيهم تماماً .. يقتحمون صمت أيامى ويزلزلون سكون وحدتى ..

ما أجمل أن يحاصرك الزحام وتجد نفسك مشغولاً ، لا وقت لديك لكى تفكر فى شىء حتى نفسك .. حاول أحيانا أن تنسى نفسك.. اتركها تماماً للآخرين .

قلت : أنت تهربين من نفسك إلى الناس .. وأنا أهرب من الناس إلى نفسى .. وهذا هو الفرق بيننا ..

أنت امرأة تعشقين الزحام .. وأنا رجل أحب أحياناً أن أمارس عشقى الشديد للوحدة .. مع نفسى أرى الأشياء أعمق وأوسع وأشمل .. مع نفسى أصبح كل شىء .. يتجسد كل هذا الكون أمامى فى هذا الكائن الصغير .. ومع الناس أشعر أننى جزء ضئيل فى هذا العالم الفسيح .. زحام الناس حولى يسلبنى خصوصيتى .. يبعثرنى .. فأجد نفسى مشاعاً .. هذا يقتطع جزءاً منى .. وهذا يسلب الجزء الآخر .. ومع نهاية كل يوم يحاول الإنسان أن يلملم نفسه من بين أيدى الأخرين

مع نفسى أملك كل الأشياء .. مع الناس يملكنى أى شىء.. وليس معنى ذلك أننى أدعو إلى الابتعاد عن الناس ، فإذا كان من الخطأ أن يغرق الإنسان تماماً فى ذاته فمن الخطأ أيضاً أن يذوب تماماً فى الناس .. إنها معادلة صعبة أن تعطى الناس بعضا منك .. وأن تحافظ على البعض الآخر .. ألا تغرق تماماً .. وألا تجلس وحيداً على الشطآن.

قالت : وما هو الفرق بينى وبينك ؟.

قلت : أنت هاربة إلى الناس لأن ما كنت تحلمين به مع نفسك لم يتحقق .. هناك لحظة خيانة بينك وبين ذاتك .. هناك حلم اتفقتما عليه يوماً ، ثم انكسر بينكما هذا الحلم .. وكل واحد منكما يلقى المسئولية على الآخر ..

وأصبح الحلم جرحاً .. وأصبح الجرح ذكرى أليمة .. وكلما لاحت نفسك أمامك عادت معها ظلال الجرح .. أنت امرأة هاربة من جرح .. ولم تحاولي يوماً أن تداوي الجرح لكي يبرأ .. وزاد مع الأيام عمقاً، وكلما اتسع الجرح زادت الفجوة بينك وبين نفسك . أما أنا فلا أستطيع أن أفعل شيئاً يتعارض مع نفسي مهما كانت ضرورته .. لم أورطها يوماً في شيء لا ترغب فيه .. ولهذا فأنا حريص عليها وهي حريصة على .. لابد أن نتصافح كل صباح .. وأن نراجع حسابات يومنا مع غروب الشمس .. يذكر كل منا أخطاءه بلا حرج .. ونتحدث عن أحلامنا التي ضاعت وأيامنا التي سقطت .. وأحباب فارقونا .. وأصدقاء خانونا .. ورفاق تخلوا عنا في منتصف الطريق..

نحزن معا .. ونشعر أن حزننا واحد .. ونحلم معاً .. ونشعر أن حلمنا واحد .. وكثيراً ما يشدنا زحام الناس والحياة ونفترق وسط هذا الزحام ، ولكنني سرعان ما أعود إليها في نهاية يوم متعب ثقيل وأنا أكثر شوقاً للتوحد معها فأحكي لها ما كان منهم .. وما كان مني .. إننا قليلاً ما نختلف . أما زحام الناس فلا أقدر عليه ولا أستطيع أن أترك نفسي لهم وقتاً طويلاً تتجاذبني الأيدي .. وتطاردني العيون .. وتتسابق أمامي أسراب الزيف .. أحب الالتئام مع نفسي ، وإذا ذهبت إلى الناس أذهب إليهم عن اقتناع واختيار .. ولا أقبل أن أجد نفسي مضطراً لأن أجامل سفيهاً أو أتنازل أمام من لا يساوي .. أو أعطي من لا يستحق .. أو أقدر من ليس أهلاً للتقدير .

وزحـام الناس يفــرض بعض التـنازلات ، وأنا لا أحب لغــة التنازلات . أحب أن أكون نفسى قبل أى شىء آخر .

قالت : ومتى أتصالح وأعود إلى نفسى ؟.

قلت : إذا جمعكما حلم جديد ..

قالت : وما هذا الحلم ؟.

قلت : حب جديد .

قـالت : ولكن السفن جميعاً تحطمت على الشـاطئ ولم يعـد من حقى الرجوع ..

قلت : حتـى لو كـانت السـفن قـد تحطمت .. لا ينبـغى أبداً أن ننسى روعة الأمواج .. وزرقة البحر فى ساعة الغروب .

❄ ❄ ❄

ليس للحب أوان ..

قالت : ما الذى يجعل الإنسان يخطئ الاختيار .. أخطأتَ يوماً فى اختيار من أحببت .. ووقعتُ أنا فى نفس الخطأ .. رغم أننا قريبان.. وكلانا يشعر أنه أقرب ما يكون من الآخر .. لدرجة أننى أحس أحياناً وأنا أتحدث معك أننى أتحدث إلى نفسى . كنت قريبة منك أكثر مما تتصور .. وكنت بجوارى دائماً فى كل شىء ، وعندما عصفت بى الأيام وجدتك تأخذ بيدى .. وحينما كنت أجد نفسى بين أطلال ألوحدة أراك معى تؤنس وحدتى . ورغم هذا كنت أجد قلبى مع إنسان آخر غيرك .. وأجد قلبك مع امرأة أخرى غيرى .. هل يمكن أن نعيد اكتشاف بعضنا بعضا .. وهل يمكن أن أحبك بعد أن اكتشفت أن من أعطيته قلبى لم يكن هو الإنسان الذى يستحق هذا القلب .. لقد أدركت أنت أن المرأة التى أحببتها لم تكن جديرة بكل هذا الحب .. لقد

أخطأنا معاً فى الاختيار .. فهل من طريق لإصلاح ما ضاع .. وهل فات الأوان .

قلت : أنا عرفتك وهناك رجل آخر .. وظهرت فى حياتى وقلبى مع امرأة أخرى .. ربما أخطأنا فى اختيارنا .. وربما كان هذا سوء حظ.. ولكننا لا نتحمل ذنب هذا الاختيار .

لو أننا التقينا قبل أن يعيش كل منا مأساته مع شخص آخر ربما اختلفت الأحداث وكانت النتائج أفضل .. أنت أحببت الإنسان الخطأ.. وأنا أعطيت قلبى للإحساس الخطأ .. وليس هذا ذنبك ولا ذنبى ولكنها الظروف التى دفعت بنا إلى طريق لا يناسب مكوناتنا ورهافة إحساسنا.

أما تفسيرك لمواقفى معك فأنا أرى أن الحب أحياناً يأخذ داخلنا أشكالاً غريبة .. فقد ينمو فى منطقة اللاوعى ويكبر دون استئذان ويتسلل فى أعماقنا .. إنه يذكرنى بتلك الأشجار التى تنمو على شواطئ الأنهار وتكبر بعيداً عن عيون الناس .. وفجأة تثمر ويلتف الناس حولها يقطفون الثمار .

وما بيننا كبر فينا دون وعى منا .. ربما كان حباً .. ربما كان إحساس ود عميق .. ربما كانت صداقة قوية .. أو نوعاً من أنواع الأخوة البريئة الراقية .. لكن المؤكد أن هناك شيئاً كبير بيننا عبر هذه السنوات الطويلة التى عرفتك فيها .

لا يعنينى شكل هذه العلاقة .. وهل كانت حباً أم صداقة أم مجرد إعجاب .. فى أحيان كثيرة كنت تغيبين عنى وأفتقدك .. وكنت أشعر بسعادة كبيرة وأنا أراك بجانبى .. حتى فى تلك اللحظات التى كنت أواسى فيها قلبك المجهد المجروح .. وكنت أقول إن هذه هى أخطاء من يزرعون الزهور فى حفر الملح ..

لقد أصبح ما بيننا شيئاً عزيزاً على نفسى .. قريباً إلى قلبى .. ولا يعنينى كثيراً ما هو شكل هذه العلاقة .. المهم أنها تمثل شيئاً كبيراً عندى .

قالت : وهل يمكن أن أحبك الآن .. أو تحبنى .. ؟

هل يمكن أن نقيم فوق أطلال أخطائنا عمراً جديداً ... كلانا أقرب ما يكون من الآخر .. لماذا لا نعيد ترتيب أوراقنا ونضع الأشياء فى أماكنها ؟

قلت : لا أدرى هل يمكن أن يحدث هذا الآن .. ولكننى أعتقد أنك تحتاجين بعض الوقت لكى تتخلصى من كل ذكرياتك الأليمة مع إنسان تسلل إلى حياتك يوماً ولو بالطريق الخطأ وأقام فيها .. وعاش وأكل وشرب .. ولكى يأتى ساكن جديد لابد أن تتخلصى من كل ما ترك الساكن القديم ..

قد يحتاج هذا بعض الوقت ، وقد تكون لديك القدرة على تجاوز هذه المرحلة بسرعة .. إنه قرارك أنت .. وهل أنت قادرة فعلاً على

تجاوز ظلال الماضى أم سيبقى داخلك حتى ولو كان مجرد أطلال .. لأن بعض الناس يحبون أشياءهم القديمة حتى ولو كانت أطلالاً ..

قالت : وماذا عن قلبك أنت .. هل فات الأوان .. ؟ .

قلت : أنا رجل لا تعنينى أشكال الأشياء .. والعلاقة التى عاشت بيننا سنين طويلة صارت فى أعماقى شيئاً عزيزاً.. وربما لا أحب أن أعطيه لقباً أو اسماً .. لقد أفسدت الأسماء والألقاب أشياء كثيرة فى حياتنا .. ولهذا أفضل ألا نعطيه اسماً .

❄ ❄ ❄

أجيال .. تبحث عن الحب ..

قالت : أنا إنسانة لم أعرف للحب طريقاً .. لم أجرب مشاعره وأحاسيسه يوماً واحداً فى حياتى .. اقتربت سفينة العمر من الثلاثين وما زلت أسمع منكم حكايات كثيرة عن أجيال قبلنا أحبت على صوت عبد الحليم .. وهامت مع أم كلثوم وحلمت مع عبد الوهاب ..

نحن جيل لم يعرف الحب .. كثيراً ما أضحك بينى وبين نفسى حينما أسمع حوارات الأفلام القديمة عن البعد والشوق والحرمان. أكاد لا أصدق أن إنساناً يمكن أن يتعذب من أجل إنسان آخر بهذه الصورة. ولا أدرى كيف تعلمتم الحب وعشتم أيامه ولياليه بكل هذه المشاعر..

لم أسمع يوماً والدى يهمس فى أذن والدتى بكلمة حب جميلة .. إنه مشغول دائماً ، وهى أيضاً .. وقليلاً ما نجتمع كأسرة ويدور بيننا

حوار .. الشيء الذى يجمعنا دائماً هو التليفزيون حيث نجلس صامتين نشاهد مسلسلاً أو مباريات فى المصارعة الحرة أو كرة القدم .. ثم ننهى الليلة بفيلم السهرة .. ويدخل كل منا حجرته وينام .

وفى الجامعة لا حديث لنا إلا عن الأشرطة الجديدة وأغلبها هابط.. أو حكايات سخيفة عن علاقات عابرة بين الزملاء لا تأخذ من العمر سوى أيام قلائل .

وحتى زملائى من الشباب عقولهم فارغة واهتماماتهم سطحية .. لم أجد واحداً منهم يشدنى بشخصيته وثقافته وتكوينه الثقافى .. وأحياناً لا يعجبنى سلوكهم .. أعجبت بشاب زميل يوماً .. وكلما كنت أذهب معه لنجلس فى أى مطعم يدعى أنه نسى محفظته لكى أدفع أنا الحساب رغم أنه ميسور الحال .. ولم أكن أجد غضاضة فى ذلك فى بداية الأمر ، ولكن تكرار ذلك جعلنى أشعر أننى أمام إنسان لا يقدر معنى الرجولة .

أحياناً أفكر فى الارتباط برجل أكبر منى ، ولكننى أخاف عامل السن والتجربة واختلاف الأجيال .. وما زلت أحلم أن أعيش مثلكم مشاعر الحب الجميلة التى عاشتها أجيالكم .. إننى أتعجب من نفسى كيف لم أحب حتى الآن .. هل العيب فى قلوبنا .. أم زماننا البخيل .

قلت : أنتم جيل سيئ الحظ .. سيف الوقت على أعناقكم .. والكل يجرى وراء حلم أو مكسب أو صفقة .. وهناك أيضاً من يجرون

وراء الأوهام .. وأصبح من الصعب أن يجد الإنسان لديه متسعاً من الوقت لكي يعمل .. ويهرول .. ويحب .. ويواجه مؤامرات الآخرين . فالحب إحساس يحتاج إلى رعاية خاصة فى كل حالاته .. إنه يحتاج إلى الصبر وليس لديكم وقت لذلك .. إنه يحتاج إلى القدرة على تحمل مسئولياته .. وأنتم لا تريدون ذلك .. وهو يحتاج أيضاً للعطاء .. وليس كل إنسان لديه القدرة على العطاء .

وكما ضاعت منكم أشياء جميلة ضاعت من حولكم أشياء أجمل.. كانت هناك مدارس كثيرة للحب .. أغلقت الآن أبوابها .

كان البيت بدفء علاقاته الأسرية أولى هذه المدارس .. حيث الأسرة المترابطة والعطاء السخى والود الجميل .. وكان الحب شجرة عريقة تظلل الحياة فى كل حالاتها فقراً وغنى ..

كانت العلاقات بين الناس مدرسة أخرى للحب حيث يشع التواصل والتراحم فى كل سلوكياتهم ومواقفهم .

وكان الفن من أكبر مدارس الحب فى بلادنا .. وازدهرت مدينة الفن وتزينت بأسماء كثيرة فى الغناء والسينما والمسرح .. ومات كثير من الفنانين وهم لا يملكون شيئاً ، وشيعتهم ملايين القلوب بالحب .. والعرفان .

وعاش هؤلاء فى وجداننا .. فأحببنا على أصواتهم .. وعشقنا على كلماتهم ، ورأينا أجمل أيام عمرنا فى واحة الفن الجميل .

وكانت كتابات كتابنا الكبار دروساً فى الأخلاق والمواقف والفضيلة .. لم يكونوا تجاراً دفعت بهم الصدفة إلى صفوف حملة الأقلام. ولم يكونوا باعة أوهام أو كذابى زفة .. كانت حياتهم مواقف شريفة .. ولذلك علمونا أن الغنى فى النفس وليس فيما نملك .. وأن الجمال فينا .. وليس خارجنا .. وأن الصدق مع النفس أول طريق النجاح..

وإذا نظرنا إلى الساحة الآن لوجدنا أطلال أقلام مبعثرة لم تترك باباً إلا وطرقته .. ولم تترك حذاء إلا وقبلته .. ووسط هذا كله أصبح الحب ضيفاً عزيزاً يفضل الرحيل .. وجلسنا معاً : أنتم الجيل المظلوم.. ونحن بقايا أجيال حلمت يوماً بإنسان أكثر نبلاً .. جلسنا نبكى معاً الحب الضائع فى الزمن البخيل .

* * *

لا تخدعنى الألوان

قالت : من أين تأتى بكل هذه التجارب التى تكتب عنها .. أكاد ألمح امرأة خلف كل حكاية .. وقصة حب وأيام وصال .. وساعات ألم.. وذكريات رحيل .. كل امرأة عبرت فى قطار أيامك وعاشت ثورتك وجنونك .. كم أخذت من عمر كل واحدة منهن وماذا تركت لها وأنت تجمع أشياءك وتمضى ..

إننى أقرأ ما تكتب وأشعر ان كل موضوع وراءه قصة .. ووراء كل قصة حبيبة .. ووراء كل حبيبة كذبة كبيرة ، قل لى بربك كم امرأة خدعت .. وكم حلماً أجهضت ..

هكذا أنتم أيها الشعراء تصنعون من قطرة الماء نهراً .. ومن لحظة الزمان عمراً .. وتبنون من أمنية صغيرة ألف حلم .. وتكسبون من قروش قليلة آلاف الملايين ..

هل كل ما كتبت حقيقة .. أم كل ما كتبت خيال .. ؟.

قلت : لست يا سيدتى أول امرأة تقول لى هذا الكلام ، فقد سمعته من قبلُ عشرين مرة .. ،كل واحدة تتصور أن كل ما أكتب حقيقة .. وأن كل ما أحكى واقع .. وأن كل سطر نزف به قلمى دماء أو دموعاً كان قصة حب دامية تركت خلفها أطلالاً تبكى على الراحلين

ولا أعتقد أننى عشت كل هذه التجارب .. فلا العمر يسمح بذلك ولا الوقت ولا قلبى ..

فأنا إنسان لا تعنينى أعداد الأشياء ولكننى من هواة الشىء الواحد .. لا أزين مكتبى كما يفعل بعض الناس بعشرات الأقلام ولكننى أكتب بقلم واحد .. وأجد صعوبة شديدة فى التعامل مع غيره .. وأنا لا أحب أن أجمع فى أعماقى عشرات الصور ، ويكفينى صورة واحدة أضعها على خريطة أيامى .. ولا أزين حياتى بحسناوات كثيرات عابرات أو غير عابرات ؛ لأن امرأة واحدة أحبها تكفينى عن كل نساء الأرض .

إننى أحب دائماً أن أسكن حجرة صغيرة أرى ملامحها الصغيرة كل يوم ، ولا أحب أن أعيش فى قصر كبير أتوه فيه .

لا أريد حديقة ضخمة تتحول إلى شبح موحش عندما يحل المساء.. ولكننى أحب أن أرى أمامى مجموعة أشجار متناسقة تصنع شيئاً جميلاً وتضىء فوق قاماتها بعض القناديل .

كثيراً ما أكتب عن قصة سمعتها .. أو أمنية تمنيتها .. أو طيف عبر فى صمت أيامى لحظات ومضى .

لست من هؤلاء الذين يحبون ملكية الأشياء .. قد أملك شيئاً ولا أحبه .. وقد أحب شيئاً لا أملكه .. وأشعر أنه يملكنى .. ليس بالضرورة أن أسكن القصر لكى أرى كل ما فيه .. يكفينى أحياناً أن أراه صورة جميلة من بعيد .. فقد أجد داخله ما يؤلمنى ويزعجنى .. وأعود مرة أخرى أحاول أن أراه كما كان جميلاً ورائعاً من بعيد .

قد يعبر بين أيامى طيف امرأة فى لحظة عمر عابرة .. ويبقى منها شىء فى حياتى .. وقد أرى كل يوم ألف امرأة ولا يبقى منهن شىء.

فأنا يا سيدتى لا أكتب وقائع .. ولكننى أرسم ظلالاً .. ولا أحكى قصصاً ، ولكننى أحاول أن أنسج أحلاماً .. وخلف كل ظل أرى وجها .. وخلف كل حلم أرى عالما من النبل والجمال .

وليس بالضرورة أن أرى كل الوجوه التى رسمتها .. ولكن يكفينى أننى رسمتها .. وليس بالضرورة أن أجنى ثمار أحلام غرستها.. ولكن يكفينى أننى حلمت .. فخلف كل ظل أرى هدفاً ومع كل حلم أرسم غاية نبيلة ..

لا أستطيع أن أعيش كما يفعل البعض حياتى طولاً وعرضاً وجنونا وسهرا.. فأنا أعشق وحدتى أحياناً .. وأحب أن أجلس مع

نفسى كثيراً .. ولكننى لا أتصوّر نفسى راكباً فى قطار أصافح كل من فيه فرداً فَرداً ثم ننزل منه جميعاً ولا نحتفظ بشىء من ذكرياتنا فيه .. أكره أن أكون مجرد محطة فى رحلة قطار ليلية .

لا أحاول أن أفرض على الأشياء لوناً .. فما أكثر الألوان الزائفة.. فقد أجد نفسى فى حوار قصير مع امرأة تشدنى إليها عشرات الأفكار ولا أرى على وجهها غير مجموعة ألوان مزركشة لا تعنينى.. يبقى فى داخلى عقلها وترحل تماماً ألوانها .

أنا لا أستطيع أن أعيش كل يوم تجربة أكتب عنها . ولكننى أستطيع أن أجد فى عمرى لحظات صدق كثيرة .. ليس من المهم أن تكون دائمة .. ولكن المهم أن تكون صادقة ..

أنا إنسان أصافح المرأة من عقلها .. ويأسرنى حنانها قبل بريق عينيها ، ويبهرنى عطاؤها قبل ألوانها الصارخة ..

وجوه كثيرة خدعتنى بالألوان .. وأنا يا سيدتى أبحث دائماً عن الإنسان .

❋ ❋ ❋

أيها الشمامون ..
رفقاً بالفنانين الشرفاء ..

قالت : ماذا تقول عن انحراف الفنان .. الآن نسمع حكايات كثيرة عن فنانين شمامين .. حتى وصل الأمر أن البعض منهم يعتقد أن الشم طريقه للإبداع والعبقرية .. أليست كارثة أن يتصور الفنانون أنهم عباقرة بالشم وليس بالإبداع ؟! .. حرام أن يتحول الفن ، هذا العطاء الخلاق، إلى صورة من صور التحلل والسقوط ..

قلت : إنها لعنة المال .. هذه الأموال التى تتدفق بلا حساب فى أيد لا تعرف قيمتها ولا تدرك مقدارها تقف وراء هذه المأساة .. وليس هذا خطأ الفنانين وحدهم ، ولكنه خطأ الزمان الذى جعل الراقصة تكسب الملايين والعالم يموت جوعاً .. وحينما يجد الفنان نفسه وقد

جمع الأموال الضخمة لا يجد أمامه شيئاً لم يفعله غير الشم .. فينضم إلى طوابير الشمامين ..

إن بعض الفنانين يتصور أن الشم هو الطريق لتفجير الموهبة وإشعال روح الإبداع ، ثم يكتشف أن الشم كان أول طريق الدمار .. دمار الموهبة ودمار الإنسان .

الأخطر من هذا أن سهرات بعض الفنانين تحولت إلى جلسات للشم والنميمة ..

وإذا كان الفنان ثروة فيجب أن نحافظ عليها .. إن عمره استثمار، ولن يتساوى فنان أبدع فى حياته فناً عظيماً خالداً وفنان آخر ضيع حياته فى الشم والمخدرات .

إن كثيراً من الدراسات تؤكد أن السينما المصرية شاركت فى توسيع دائرة الشمامين وانتشار المخدرات .. ولهذا لم يعد الخطر مقصوراً على فنان انحرف .. ولكنه تحول إلى قدوة سيئة أمام الشباب .. وما زلنا نذكر فنانين ماتوا من المخدرات وضاعت مواهبهم فى سحابات الدخان والشم .. وسقطوا فى مستنقع الانحراف ولم يخرجوا منه إلا إلى « القرافة ».

وحياة الفنان ليست ملكاً له وحده .. إن الفنان ملك للملايين الذين أحبوا فنه .. كما أنه يضرب للناس المثل والنموذج فى مواقفه وسلوكياته ، ولكنه النجاح السريع الذى يجعل من الممثل نجماً فى

مسلسل .. يضاف لهذا أن كثيراً من الفنانين تنقصهم الثقافة التى تجعل الواحد منهم يشعر أنه صاحب دور ورسالة .

ولا أدرى كيف نحمى الفنانين من لعنة الشم .. وكيف نحمى الشباب من مصائب الفنانين الشمامين .. ولا يعقل أن يكون الفنان قدوة سيئة أمام جمهوره .

ولهذا أشعر بحزن شديد كلما شاهدت صورة فنان فى صحيفة يحيط به رجال الشرطة .. لأن مكان الفنان الطبيعى ليس أقسام الشرطة ولا التخشيبة ، ولكن مكانه الحقيقى أن تحمله الجماهير على الأعناق ..

وللأسف الشديد فإن بعض فنانينا اختاروا التخشيبة وفضلوها على القلوب التى أحبتهم وحملتهم دائماً وسط باقات التكريم .

خطأ كبير أن يتصور الفنان أن سحابات الدخان تعطيه فناً أجمل لأن الفن الحقيقى إبداع واع وفكر خلاق وضمير حى .. وصدق مع النفس.

والذين يبدعون بين سحابات الدخان لن تتجاوز أعمالهم - مهما كانت قيمتها - بقايا الدخان الذى يتلاشى فى الفضاء ولا يستطيع الإنسان أن يمسك منه شيئاً .

الفن العظيم يبدعه فنان عظيم .. والفنان العظيم ينبغى أن يكون إنساناً عظيماً .. والإنسان العظيم لا يقبل أبداً أن يضيع عمره وشبابه وموهبته بين سحابات الشم .

يا أيها الشمامون .. رفقاً بالفن .. ورفقاً بالفنانين الشرفاء ..

وتدور رحلة الحياة

قالت : أى المشاعر أكثر عمقاً .. حب الآباء .. أم الأبناء .. أم الزوجة ؟ وأين تقع مشاعر كل هؤلاء ؟ .. وهل هناك مشاعر تفوق أخرى فى حياة الإنسان .. ؟.

قلت : فى أعماق الأرض توجد المعادن الثمينة .. كل معدن منها يحمل ملامح وصفات تختلف تماماً عن الآخر .. قد نجد سبائك الذهب فى مكان .. وقد نجد قطع الماس فى مكان آخر .. وكلاهما الذهب والماس له قيمته وتكوينه وملامحه .

وفى أعماق الإنسان توجد مشاعر متنوعة قد يجمعها إطار واحد ولكنها تختلف فى أشكالها .. ولذلك أتعجب عندما أسمع سيدة تقول إن زوجى يحب أمه أكثر منى .. أو أن يقول رجل إن زوجتى تحب أباها أكثر مما تحبنى .. لأن هذه مغالطة كبيرة فى الأحكام والتفكير

والمشاعر. علاقة الرجل بأمه تختلف فى تكوينها وطبيعتها عن علاقته بزوجته . فالأمومة إحساس بعيد تماماً عن مشاعر الحب التى تربط الرجل بزوجته أو حبيبته .. فالأمومة تراث زمنى وإنسانى بعيد وممتد ، وارتباط نفسى له جذوره التى تتجاوز حدود التجربة الإنسانية المباشرة وتدخل فى مناطق أخرى من مكونات النسيج العاطفى والوجدانى يصعب معها تحديد شكل هذه العلاقة ومدى عمقها وتأثيرها ، فالأم إنسانة جاءت بنا إلى الحياة وحملتنا فى أعماقها وشاركتنا العمر ابتداء من لحظة الميلاد حتى لحظة تسليمنا لرفيقة عمر تشاركنا بقية الرحلة.. والأمومة هى المنطقة الوحيدة فى حياتنا التى تتعامل بلا مقابل .. إنها عطاء بلا ثمن .. أما الزوجة فهى إحساس آخر يختلف فى كثير من جوانبه .. إنها الإنسانة التى اختارها الرجل من بين عشرات النساء .. والشيء الغريب أن علاقة الأمومة محددة جداً فى إطارها العميق .. أما علاقة الحب فهى متشعبة للغاية .. إن الرجل أحياناً يجد فى رفيقة رحلته شيئاً من الأمومة .. وتشاركه العمر بحلاوته ومرارته وانكساراته وانتصاراته فيجد فيها الرفيقة والحبيبة والصديقة .. وشريكة الرحلة .

ولهذا فإن المقارنة هنا غير واردة لأنها غير موضوعية .. لأن علاقة الأمومة لها مقومات إنسانية قد لا يدرك الإنسان أبعادها .. وأكبر دليل على ذلك أن الطفل يعرف صدر أمه من بين مئات النساء، إنه يدرك بفطرته الشدى الذى أرضعه والدفء الذى احتواه والأحشاء التى حملته .. يعرف كل هذا بالفطرة وليس بالخبرة .. أما الحب الواعى

الناضج فإنه منطقة تتشكل أولاً في إطار الوعى المتكامل بالأشياء حيث يحقق الإنسان من خلالها ذاته ورغباته ومشاعره .. ولهذا لا ينبغى أن تنزعج زوجة لأن رفيق عمرها يحب أمه .. أو أن يثور رجل لأن زوجته تحب أباها ؛ لأن هذه مناطق من المشاعر تختلف .. والخلط بينها نوع من التشويش السلوكى والوجدانى إلا إذا كانت أشياء فيها مبالغة فى الإحساس أو التقارب المرضى وهذه حالات لا قياس عليها .

قالت : وماذا عن الأبناء ..؟.

قلت : منطقة ثالثة من المشاعر لا علاقة لها بما سبق ، وإن كانت امتداداً لنفس الدائرة .. فالأبناء جزء منا .. فإذا كان الإنسان يحمل شيئاً من والديه .. فإن أبناءه يحملون شيئاً منه .. ولكن الإنسان يدرك قيمته وقدره عند أبويه حين يصبح أبا وتبدأ رحلته مع العطاء .. وهو عادة عطاء بلا ثمن .. وإذا كانت الأبوة هى ماضى الإنسان .. والزواج حاضره .. فإن الأبناء هم المستقبل .. وهنا تستكمل الرحلة جوانبها .. أبوة تمثل عمر الإنسان وماضيه وذكرياته .. وشريكة عمر تقاسمه حاضره ورحلة حياته .. وأبناء هم الغد والحلم والمستقبل .. وهنا تختلط المشاعر بعضها فى بعض فيلقى الماضى ظلاله على الحاضر .. ويحتضنان فى حب أحلام الغد .. والإنسان لايستطيع أن يهرب من ماضيه ، أو يسقط حاضره ، أو يغمض عينيه عن المستقبل . وكما كان هو يوماً حلم والديه أصبح شريك زوجته وأصبح الأبناء حلمهما معاً.
وتدور الحياة .

لكنها الأيام

قالت : ما الذى يغريك بالسفر فى بحارى؟ .. أعلم أن حولك شطآنا كثيرة وأنك من زمان بعيد لم تعد تعشق الرحيل مع الأمواج .. واستكانت بك الأيام وهدأت .. واستراح عمرك مع ليالى الصمت الطويلة. ما الذى أغرى الفارس القديم بالرحيل؟ .. كيف عاد إلى عصر جنونه وزمان عشقه للأمواج؟ .. ما الذى جعل الفارس الذى اختار الذكريات موطنا يحاول أن يشق البحر من جديد؟ .. هل هى رغبة فى اقتحام المجهول.. أم إحساس بالملل .. أم أنك رأيت شيئا غريبا عليك جعلك تحن إلى جنونك القديم .. أم أنه حنين الفصول لبعضها البعض حينما يحن الصيف للشتاء .. والخريف للربيع؟.

قلت : لا أدرى ما الذى جعل السندباد الذى استكان داخلى زمنا يخلع عن حياته السكينة والهدوء ويعود للبحر مرة أخرى؟! .. وقد

سألت نفسى: ما الذى حرك فى أعماقى الرغبة فى السفر؟... هل مللت سكينة الشطآن .. أم أن زرقة الماء وصفاءه وبريقه أعادت إلى نفسى الثقة فى الإبحار مرة أخرى ؟ ..

فمازلت على يقين أن أجمل الأشياء فى الحياة أن يسافر الإنسان فى أعماق من يحب .. وأشعر الآن أن أمواجك كانت أعلى من قدرتى على الاستكانة .. وأن البحر الأزرق المجنون حرك فى أعماقى فرحة اللقاء بين موجتين حائرتين تبحثان عن لحظة لقاء تتجاوز الزمان والمكان.

أرى فى عينيك صباحا مشرقا بريئا أعانق فيه البشر والزمن والأشياء .. أرى ذلك الهدوء الذى يملأ نفسى ويسيطر على وجدانى.. ما الذى غيرنى .. هل هو لقاء الصدفة .. أم أن سحابات الخريف التى بدأت تطل على أيامى تجعلنى أتمسك بالربيع الصاخب المجنون؟.. هل هى أوراق أصابها الاصفرار تحتضن فى شوق براعم تمتد عيونها فى شموخ للسماء؟.. هل هى أغصان تجمدت فى ليالى الصقيع والوحشة وتركت نفسها قليلا لعلها تتكئ على غصن أخضر مورق جميل؟..

يخيل إلى أن لقاء الفصول من أجمل لحظات الصدق فى الكون.. حينما يتقابل الربيع مع الخريف فى لحظة لقاء حارة قد لا تمتد طويلا ولكنها لحظة صدق نادرة .. ساعتها ينظر الخريف للربيع وهو يهمس: «لقد كنت يوما مثلك تملؤنى الحياة برونقها وجمالها، ودارت على الأيام

وأصبحت كما تراني الآن وجها شاحبا .. وعمرا حزينا.. وقد كنت في يوم أكثر شبابا وتألقا .. ولكنها الأيام». ويهمس الربيع وهو يصافح الخريف ويقول له : «يشدني في عينيك أيها الخريف حزن دافئ.. وشحوب جليل.. لقد كنت كريما مع الناس، أعطيتهم الشباب والظلال والعمر وأسعدتهم زمانا طويلا».

وأنا وأنت لقاء الربيع والخريف .. ولا أدري هل يكون اللقاء دائما حارا أم أنها لحظة صدق عابرة هي في حقيقتها لحظة وداع؟!.. هل هو لقاء الوداع .. أم وداع اللقاء .. أم خريف وربيع لكل منهما طبيعة وظروف؟.. فالخريف رغم شحوبه يرى في الشحوب جلالا.. والربيع بخضرته يرى في البريق جمالا.

قالت: وكيف يجيء الحب؟

قلت : حين يجيء الحب لا يستأذن أحدا ولا يطلب تصريحا بالدخول .. إنه لا يعرف جوازات السفر .. ولا غرف التفتيش.. ولا بوابات الحراسة .. وقد يعيش الإنسان عمرا كاملا ولا يعيش لحظة حب صادقة.. فالحب هو الضيف الوحيد الذي يدخل أعماقنا بدون طقوس أو سؤال.

ولكن الحب في زماننا تغيرت أشكاله، فاللحظات العابرة والمشاعر الطائشة والمراهقة المتأخرة يسمونها حبا.. رغم أن الحب هو الشيء الوحيد الذي لا يحتاج لأي مسميات؛ لأنه أكبر من كل الأسماء.

مأساة زوجة

قالت : ماذا أفعل مع رجل سرق أجمل سنوات عمرى ومضى؟.. أخذ رحيق شبابى .. ونضارة أيامى .. وأعطيته القلب والعقل والمشاعر.. وفى لحظة توارى .. فترك البيت خاليا .. لم يبق حولى غير هذه الجدارن التى تصرخ حولى.. أطلال العمر الذى وهبته له يوما يوما .. وركام الأحلام التى نسجتها معه حلما حلما..

هل يمكن أن يسقط بناء ضخم بنيناه فى ثلاثين عاما من الحب والعطاء؟.. هل يمكن أن أجد نفسى فجأة وحيدة وقد غابت عنى أجمل سنوات العمر؟.. ماذا حدث للناس؟.. كيف يسرق إنسان عمر امرأة ويستنزف رصيد أيامها وبعد ذلك يتركها؟.. أين أخلاق الرجال الفرسان؟

لماذا لم يتركنى حينما كانت أبواب الدنيا أمامى مفتوحة؟.. لقد تزوجته رغم إرادة أهلى.. وكنت يومها حلما كبيرا بالنسبة له .. وبعد ثلاثين عاما أصبح الحلم عبئا .. وأصبح العبء هما.. فترك البيت ومضى.

ترى من أعاتب الآن؟.. هل أعاتب نفسى على سوء اختيار أم أعاتب حظى؟.. أم هى الظروف التى دفعت بى إلى طريق مجهول لم أدرك حقيقته إلا بعد أن تسرب العمر منى ووجدت نفسى وحيدة أواجه مصيرى ؟.

أين نخوة الرجل .. الرجل ؟.. لو أحب غيرى لقلت تغير قلبه وليس لنا سلطان على القلوب .. لو أسأت إليه فى شىء لوجدت لنفسى مبررا حتى أنسى فى دوامة ندمى مشاعر المرارة والحزن .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. فجأة أخذ كل شىء منى ومضى .. وجلست على رصيف الحياة أنظر حولى بعد أن فاتت كل القطارات ولم يبق غير وحشة الانتظار وصقيع الوحدة وخريف العمر والليل الطويل..

قلت: لا أجد الكثير عندى لكى أرد عليك.. فلن أطيل .. فأنا أتصور حجم معاناتك، وأعلم أنها ثقيلة وعميقة وجارحة .. ففى مثل هذا العمر يصعب على الإنسان أن يبدأ من جديد . فى لحظة ما من عمرنا يصعب علينا أن نجد بدايات جديدة لأن الخيوط سارت منا فى اتجاه واحد..

ومن الصعب أن تحتمل النهاية بداية جديدة إلا إذا كانت تحمل فى أعماقها بذور هذه البداية.. أن يكون هناك متسع من العمر والحلم والإرادة. وأنا أرى أمامى امرأة وضعت كل عمرها وحياتها وأحلامها فى صفقة واحدة.. وأنا أذكر فيك ضحايا الريان، هؤلاء الذين وضعوا تحويشة العمر فى مكان واحد وناموا .. وفجأة اكتشفوا حجم المأساة.. أحاطت بهم النيران من كل جانب .. ورأينا كل واحد منهم يحاول أن ينجو ببدنه .. وحتى محاولات النجاة كانت نوعا من الانتحار.

وأنت ياسيدتى لم تضعى رصيد أموالك ولكننك وضعت رصيد أيامك .. وإذا كان بمقدورنا أن نعوض خسائر الأموال فنحن لا نستطيع أبدا أن نعوض خسارة الأيام . لأن خسارة العمر لا يمكن أن تعوض .

ولهذا فأنا أشعر بعمق جراحك من رفيق رحلتك .. ورغم هذا فأنا لا ألومك على حزنك، ولكن ألومك على هذا الحب الجارف الذى ما زال يشع داخل كيانك.. أشعر أن الرجل ما زال يسكنك وهو يستحق أن يطرد فورا من حصونك التى عاش فيها؛ لأن مثل هذا الرجل لا ينبغى أن يسكنك لحظة واحدة.

قالت: كل شىء فى البيت يحمل ذكريات أيامى معه .. والذكريات هى كل ما خرجت به من رحلة الثلاثين عاما.. وإذا هربت من ذكرياتى فكيف أترك بيتى.. أطلال عمرى تحاصرنى فى كل شىء فيه

قلت: فى بعض الأحيان نحتاج إلى مواقف حاسمة تعيد لنا رؤيتنا للأشياء.. يجب أن ننزع عن أعيننا تلك العدسات المكبرة التى تضخم أمامنا الأشياء، سواء كانت عيوبا أم حسنات.. وفى وقت ما يجد الإنسان نفسه مطالبا بأن يزيح كل الأقنعة التى تغطى وجه الحقيقة، وخاصة إذا كانت أقنعة مزيفة صنعها بأوهامه.. مثل هذه الأقنعة تضللنا بعض الوقت ، ولكن حينما نفيق من ضلالنا يجب أن ندرك حقيقة ما كان بين أيدينا .. ومن أعطيته عمرك ياسيدتى كان صفقة مزيفة تصورت أنها تساوى أموال الدنيا وهى فى حقيقتها لا تساوى أى شيء..

من باعك بعد ثلاثين عاما من الحب والعطاء والمشاركة وبدون أسباب لا يستحق منك دمعة واحدة .. وإكرام الميت .. دفنه.

❄ ❄ ❄

محطات العمر

* أجمل لحظة عشتها فى عام ١٩٩١م .. حينما كتبت آخر بيت من الشعر فى مسرحيتى الشعرية «الخديوى» بعد أربع سنوات كاملة قضيتها فى إنجاز هذا العمل الدرامى الغنائى الكبير، تناولت فيه فترة من أهم فترات تاريخ مصر الحديث .. الخديوى إسماعيل .. العاشق .. المجنون .. الحالم .. الرجل الذى أراد أن يجعل من مصر قطعة من أوربا، وأن يرى «باريس» فى القاهرة، والسوربون فى «ميت عقبة».. و«الشانزليزيه» فى «العتبة الخضراء».. وأن ينقل قوس النصر واللوفر إلى أرجاء قاهرة المعز.. أصاب إسماعيل حين عاش أحلامه ، وأخطأ حين تجاوزت هذه الأحلام منطقة الممكن لتسقط فى أعماق المستحيل، فاستدان وباع أرضا ووطنا لكى يبنى أحلاما خانته فى نهاية الرحلة، ورغم كل الأخطاء بقى إسماعيل حاكما يحتاج إلى من ينصفه أمام

معاول التاريخ.. وقد حاولت ذلك، وقد بدأت العمل متحاملا على الرجل وأنهيته - بكل الأمانة - متعاطفا معه .. ولهذا جاء العمل موضوعيا بدرجة كبيرة .. فقد قلت ماله .. وما عليه .

* أما أسوأ لحظة عشتها فى عام ١٩٩١م .. حينما شاهدت على شاشة التليفزيون جنديا أسيرا يكاد يقبل حذاء جندى أمريكى أثناء حرب الخليج .. لحظة حزن ومهانة لن أنساها ولو عشت مائة عام.. كانت جرحا عميقا لكبرياء كل عربى حتى ولو كان الخلاف بيننا من هنا إلى بغداد.. ولكنها خطايا الحكام حينما يدفع البسطاء ثمنها من كرامتهم وعزة نفوسهم.. وما أكثر خطايا حكامنا فى حق شعوبهم.

دارت فى رأسى ساعتها مشاهد كثيرة لأماكن لم أزرها، فأنا لم أذهب إلى العراق، ولكننى عشت عبق تاريخها العظيم من خلال تاريخ العرب والمسلمين، ودارت المشاهد فى رأسى لأرى سحابات الجنون تجتاح تاريخا وأوطانا وشعوبا وأموالا .. وخرجنا منها جميعا خاسرين، وهذا حالنا نحن العرب: كل الجراح التى أدمت جوانحنا ومزقت شملنا .. كانت بأيدينا..

أخطر لحظة عشتها فى عام ١٩٩١م .. هى إحساس دائم بالخوف يطاردنى.. لا أجد له مبررا .. ولا أعرف له سببا.. هل هو بقايا زمان القهر الذى ترك فى أعماقنا هذه المشاعر .. فأنا لا أثق كثيرا فى الزمن .. وأخاف طباع الناس وتقلباتهم فى هذه الأيام .. لأن طباعهم

تغيرت وأصبحت مساحات الشر في نفوسهم أكبر بكثير من مساحات الخير .. تعطى الإحساس الصادق والود الجميل وتحاصرك أسراب الجحود، فتشعر أن الحياة فقيرة رغم كل ما فيها من مظاهر الثراء .. ما أكثر الناس حولنا .. ولكن لا ترى منهم أحدا ..

لحظات الخطر فى حياتى أن أفقد ثقتى بالأشياء؛ لأن ذلك يكسر فى أعماقى أشياء كثيرة.. أسوأ المواقف أن يفقد الناس مصداقيتهم عندى وقد أصبح ذلك سلوكا شائعا الآن.

* كل لحظة صدق أعيشها هى أغلى الأشياء فى حياتى .. فأنا رجل لا يبهرنى بريق الأشياء .. ولكن يجذبنى جوهرها .. فقد أرى رجلا مزركشا وأشعر أنه صندوق قمامة يمشى على قدمين، وقد أرى إنسانا مبهرا، ولو وضعت يديك على رأسه لاكتشفت طبولا جوفاء تدق من بعيد..

ولهذا أبحث عن كل لحظة صدق .. فى الموقف .. فى المشاعر.. فى التأمل .. فى محاسبة الإنسان لذاته ..

فأنا لا أطيق الزيف سلوكا .. أو مواقف .. أو وجوها .. أنا ألوم الناس على كذبهم، ولكننى ألوم نفسى أكثر لأننى صدقتهم .. وربما أنسى كذب الآخرين .. ولكنى لا أطيق أبدا أن أشاركهم لعبة الكذب..

* أما أطول لحظة عشتها فى عام ١٩٩١ م .. فهى تلك اللحظات الجميلة التى أعيشها مع الورق.. إنها قصة حب دائمة حينما أجلس مع قلمى أمارس جنونى وشططى وأشعر أن كلينا صادق مع الآخر.. وتبقى هذه اللحظات خارج حسابات الزمن والأشياء.. ومعها أشعر أن علاقتى بالأصدقاء الذين أكتب لهم علاقة مجردة من كل المصالح والشبهات، فأنا لا أريد شيئا منهم غير أن يصدقوا كلماتى إذا راقت لهم، وهم لا يريدون شيئا منى غير أن أكون فعلا صادقا معهم ..

وحتى الآن لم أكذب عليهم مرة واحدة ..

* * *

كراكيب الأيام

قالت : أراك منتشيا هذه الأيام، ماذا جرى لك؟

قلت: شيء بسيط جدا حدث .. تخلصت من «كراكيب» أيامى .

قالت: ماذا تعنى بكراكيب الأيام ؟..

قلت: بعض الناس عندهم هواية قديمة هى جمع الأنتيكات والتحف.. إنهم يجعلون منها نوعا من الاستثمار .. فبدلا من أن يضع صاحب المال أمواله فى شكل أرصدة وأسهم وسندات وعمارات وأراض فإنه يشترى بعض التحف والأنتيكات القديمة، وبذلك يضمن أن تبقى أمواله أمام عينيه يستطيع أن يبيعها فى أى وقت.. ولا يدفع عليها ضرائب.. وتزداد قيمتها مع الأيام .. ولأننى لا أملك أموالا استثمرها فقد استثمرت أيام عمرى فى شراء بعض الأنتيكات.. وجمعتها قطعة

قطعة .. وكنت أشعر أننى جمعت ثروة العالم كله.. وكنت أطوف حولها فأجد ذكريات عمرى يوما يوما.. وأشاهد أحلام حياتى حلما حلما .. أناس عرفتهم.. وجمعتنى بهم ذكريات.. أحببت بعضهم وحملت لهم مشاعر عميقة.. ورحل من رحل.. وجاء من جاء.. وسافر من سافر .. وبقيت الأنتيكات تزين متحف أيامى.. وكنت سعيدا بها أراقبها كل يوم من بعيد .. وأرى فيها عمرى وحصاد أيامى .

قالت: وماذا حدث لمتحف أيامك؟

قلت: ذات يوم قابلنى صديق يفهم أكثر منى فى طبائع الناس وأخلاق البشر والعلاقات الإنسانية.. إنه سمسار إنسانى جيد .. أو بمعنى آخر مثمن قديم فى المزادات الإنسانية.. مارس البيع والشراء فى أسواق البشر .. يدرك قيمة الناس وأسعارهم ..

وأخذته يوما معى وذهبت إلى متحف أيامى وقلت له : عندى مجموعة أشياء ثمينة للغاية أريدك أن تحدد أسعارها قطعة قطعة .. وبدأت أعرضها عليه .. هذه القطعة أخذت خمس سنوات من عمرى .. وهذا التمثال اشتريته بأجمل أيام شبابى .. وهذه اللوحة دفعت فيها الأشواق والألم.. وهذا التابوت رسمت أجزاءه جزءا جزءا وطرزته بمشاعر قلب محب، فكم بربك تساوى هذه الأشياء؟

وضحك صديقى الخبير المثمن فى سوق البشر وهو يمسك التحف وقال: لا تعرضها فى المزاد لأنها جميعا مزيفة.. باعوك يا صديقى

بضاعة مزورة .. فهذا التمثال من أردأ أنواع الخشب .. وهذه اللوحة قناع جميل لوجه مستعار مزيف .. وهذه الصورة لامرأة لا تعرف الصدق.. وهذا الوجه شبح ممسوخ .. وهذا التابوت ما زالت تنبعث منه رائحة العفن .. وهذه الأنتيكات الخشبية التى تتحلى بها جدران أيامك كانت كلها قصصا من الزيف والخداع والنفاق والتحايل .

لا يوجد فى متحفك شيء يستحق أن تحتفظ به.. لقد ملأت المتحف بأشياء كثيرة جدا وكان ينبغى أن تسأل عن قيمتها قبل أن تدفع ساعة واحدة من أيامك .. إنها لا تساوى لحظة فكيف دفعت فيها سنوات العمر الجميل؟..

أنت إنسان لم تعرف لغة المزادات ولم تحسب أسعار الأشياء وقيمة الناس، ولهذا خدعوك ياصديقى.

قلت : وكم تساوى هذه التحف ؟..

قال: يا صديقى، إنها ليست تحفا ، إنها مجموعة كراكيب.. انظر إلى أشلائها المفككة.. وألوانها الباهتة .. لا شيء فيها يستحق أن تبقى عليه..

ومضى صديقى ، ووقفت وحيدا أتأمل كراكيب أيامى .. من أحببت.. ومن صادقت .. ومن أعطيت .. وسألت نفسى: ماذا بقى من هؤلاء جميعا .. أين هم الآن ؟ .. وأين أنا ؟.. وأين الزمان الذى جمعنا .. وفرقنا .. وشردنا؟..

وأغمضت عينى وأنا أحمل كراكيب أيامى وألقى بها من نافذة المتحف العتيق الذى بنيته فى خيالى عبر سنوات العمر ..

لم أندم لأننى أبقيت عليها كل هذا العمر، ولكننى شعرت بأننى سوف أندم إذا أبقيت عليها بعد الآن وقد أدركت قيمتها الحقيقية .. لأنها لا تتجاوز قيمة الأشياء المزيفة التى تعبر علينا كل يوم.

· أحيانا يجب أن نراجع أنفسنا ونلقى بكراكيب أيامنا قبل أن تتكدس حولنا فلا نرى شيئا غيرها.

شيء واحد انتزعته من بين هذه الكراكيب وضممته إلى صدرى لأننى لا أستطيع أن أعيش بعيدا عنه..

إنه شعرى ..

❄ ❄ ❄

وبقى الشعر ..

قالت : ماذا بقى من «كراكيب أيامك» ؟

قلت: شيء واحد انتزعته من وسط هذا الركام .. ثم أودعته خزانة ضخمة وأغلقت أبوابها .. وأخفيت مفاتيحها عن كل العيون .. فإذا كانت أطلال الأيام لم تعد تساوى شيئا، فمازال عندى شيء واحد أعتز به .. إنه شعرى.. فإذا كنت قد خسرت فى رحلة العمر ناسا .. فقد كسبت فنا ..

ولا يعنينى بعد ذلك من أخلص ومن خان .. ومن اشترى ومن باع.. ومن أعطى ومن بخل.. المهم أن هناك شيئا بقى لى من هذه الرحلة .. وإذا كان أصدقاء الرحلة قد باعوا الأيام والعمر والذكريات

فيكفينى أننى اشتريت وهم باعوا .. وأعطيت وهم بخلوا .. ووفيت وهم خانوا ..

أنا لا أستطيع أن أنسى عمرى لأن شعرى يشبه الناقوس الذى يدق دائما على رأسى يذكرنى .

وكلما أغمضت عينى وحاولت النسيان ثار أمامى شىء ملأ الكون ضجيجا وصراخا واحتجاجا .. إنه كلماتى .. تلك التى نزفتها قطرة قطرة .. وأعطيتها العمر يوما يوما .. إنها نزيف أيامى .

قالت: وهل ندمت على ذلك ؟

قلت: إذا كنت قد ندمت على العمر الضائع والأشياء التى تخيلت أن لها ثمنا ثم عرضتها فى المزاد واكتشفت أنها لا تساوى شيئا .. رغم هذا كله فأنا أرى أن شعرى لا تساويه أموال الدنيا .. لأنه سنوات عمرى بكل ما فيها من انتصارات وهزائم..

إن زماننا لم يؤمن بقيمة الأشياء .. من الصعب أن نجد فيه قيمة أصيلة .. إحساسا صادقا .. موقفا نبيلا .. إنه زمن الزيف فى كل شىء ابتداء بالمشاعر وانتهاء بالعملات المزيفة .. ولهذا كان من الصعب أن أجد أشياء كثيرة حلمت بها ..

ولقد حاولت أن أصنع الأحلام فى خيالى حتى ولو كانت الحقيقة مرة والواقع قبيحا .. لقد جاء صديقى الذى يفهم فى مزادات العلاقات

الإنسانية وشاهد كل التحف التى احتفظت بها كل هذا العمر واتضح لنا أنها مجموعة كراكيب قديمة .. ولولا صديقى لاحتفظت بها حتى نهاية العمر ..

قالت : وهل يعوضك الشعر عن العمر؟

قلت: لا فرق عندى بين الشعر والعمر فهما شيء واحد .. فالحياة عندى هى الكلمة ولا شيء غيرها .. وماذا يساوى عمرى بدون شعرى.. أنا لا أصلح أن أكون تاجرا .. أو مقاولا .. أو رجل أعمال .. أو طبيبا أو مهندسا ..

قالت : وبماذا تنصح الآخرين ..

قلت: أن يحاول كل إنسان أن يقيم ما يملك من أشياء ..

أن يقيم العمر .. حتى يحتفظ بأجمل مافيه ..

أن يقيم إمكانياته وقدراته حتى يستثمر أفضل مافيها ..

أن يكون قادرا على أن يعطى حتى ولو بخل عليه الآخرون .. وألا يندم على شيء قدمه .. فيكفيه أنه أعطى .. وأن الآخرين بخلوا.. وأنه أخلص وأنهم خانوا ..

يكفيه أن يشعر أنه يختلف عن الناس فى صفاتهم وسلوكياتهم وحياتهم .. إن هذا الإحساس كفيل بأن يجعل الإنسان يشعر بالرضا .. ولا يتسرب الندم إليه أبدا ..

إننا نندم عـادة على أخطائنا . فـمـن قـال أن العطاء خطيـئـة .. والإخلاص معـصـيـة ؟ ورغم هذا يجب أن يكون الإنسان واعيـا للأرض التى يبذر فـيها بذوره حتى لا تأكل طبقات الملح جذور أشجـاره فى غفلة منه .. يجب أن يضع الأشياء فى أماكنها والمشاعر عند مـن يستـحقـها

ويجب عليـه من وقت لآخر أن يقوم بعمليـة تطهيـر واسعـة حتى يظل البيت نظيـفـا.. فيـلقى من نوافـذه كل الأشيـاء التى لا تسـتـحق أن تبـقى.. إن زحـام الأمـاكن يصـيـبنا بـالدوار .. وزحـام الطعـام يصـيـبنا بالتـخمة .. وزحام الذكريات كثيـرا كما يفقدنا القدرة على أن نرى الحياة حولنا .

* * *

أيهما يحب أكثر..؟

قالت : من لديه القدرة على الحب أكثر .. المرأة أم الرجل؟

قلت: لايرتبط الإحساس أبدا بنوع الجنس.. فقد يكون الرجل أعلى إحساسا .. وأعمق شعورا من المرأة.. رغم أن المرأة فى طبيعتها وتكوينها تملك مشاعر أكثر..

وقد تكون درجة الإحساس عند المرأة أكثر اتساعا.. ولكنها عند الرجل أكثر عمقا .. والرجل إذا أحب يكون حبه أشمل وأكبر.. فالرجل بحكم اهتماماته وعلاقاته وظروف تكوينه يملك مساحات أوسع من العلاقات الإنسانية تتيحها له ظروف الحياة والواقع الاجتماعى وعندما يختار امرأة فمعنى هذا أنه اختارها من بين وجوه كثيرة وهذا يجعل حبه أكثر عمقا.. ولكن الشيء الذى يغير مشاعر المرأة عن الرجل أنها تريد

رجلا واحدا تحبه وتعطيه العمر والقلب والحياة.. فقد أكون المرأة فى أحيان كثيرة أكثر إخلاصا من الرجل.

وبين كل هذه الأنواع يمكن أن نجد امرأة جليدية تحمل وجها جميلا باسما وقلبا من جليد.. قد نجد الوجه الجميل والعيون الميتة.. والبشرة اللامعة التى تخفى وراءها تلالا من الجليد.. وقد نجد ذلك أيضا فى كثير من الرجال.. فالقضية ليست قضية رجل وامرأة.. لكنها قضية إنسان يملك الإحساس وآخر لا يملكه.

قالت: هل يملك الإنسان أن يرفع حرارة مشاعره؟

قلت: هذا يختلف باختلاف طبيعة الإنسان.. هناك بعض الناس يعيشون بقلوبهم.. ولا يتصورون الحياة بغير نبضها.. وهناك آخرون يعيشون الحياة طعاماً وشرابا ونوما وصحوا ومكسبا وخسارة..

والذى يملك قلبا كبيرا لايستطيع أن يعيش بدونه.. كما أن هناك من يستطيع أن يعطى قلبه إجازة مفتوحة من كل شىء.. ولن يتساوى من يرهق قلبه بالأعباء والمسئوليات والمشاعر مع آخر لا يجلس مع قلبه دقيقة واحدة..

هناك قلب لا يستطيع أن ينام بدون كشف حساب مع النفس.. ولا يستطيع أن يجلس بغير حلم جديد ولا يتصور حياته بدون قلب آخر يشاركه سعادته وهمومه.

والنوع الأخير من الناس قد يكون شقيا فى حياته ولكنه سعيد بإحساسه.. أنه يعيش كل يوم إحساسا جديدا ولحظة ميلاد جديدة..

والذين أعطوا قلوبهم إجازات مفتوحة واستراحوا لا يمكن أن يكونوا مثل هؤلاء الذين تتحمل قلوبهم المهام الصعبة إحساسا ونبضا وسلوكا.

قالت: وأى القلوب تحب.. قلب كسول.. أم قلب ينبض مع كل شىء؟

قلت: النوع الثانى يشعرنى بجمال الحياة رغم متاعبها.. فأنا لا أحب القلب الكسول.. والقلب هو الجزء الوحيد فى الإنسان الذى لا يطلب أجازة.. فهو يعمل طول الوقت.. ويظل طوال العمر ينبض.. ويوم يصمت القلب وتسكت دقاته ينتهى معه كل شىء إن الأطباء ينصحوننا دائما بأن نمشى حتى يزادا تدفق الدماء فى عروقنا.. فإذا كانت الحركة تعيد الشباب للقلوب فإن النبض يعيد لها قدرتها على الحب والعطاء ومواجهة الحياة. بغير الحب تميت قلوبًا كثيرة وأسوأ الأشياء أن تموت قلوبنا ونحن ما زلنا أحياء.

❄ ❄ ❄

الحياة معك .. أجمل

قالت: مادام الفراق نهاية رحلتنا ونصيبنا من الحياة.. ولماذا لا نفترق الآن؟ إذا كانت النهاية تحدق في عيوننا، وتطاردنا في كل مكان.. دعنا نحاول أن نشرب الكأس مرة واحدة حتى ولو كان مراً.. إننا نموت في كل يوم حينما نلتقي.. ونتعذب.. ونفترق..

لماذا لا نموت مرة واحدة.. ونفترق للأبد؟

قلت: من الخطأ أن يجمع الإنسان عمره في سلة واحدة.. فيعيش ساعة اللقاء، وأمام عينيه شبح كئيب اسمه الفراق..

لماذا نفكر دائما في نهايات الأشياء رغم أننا نعيش بدايتها؟ هل لأننا شعوب تعشق أحزانها؟ أم لأننا من كثرة ما اعتدنا الخوف أصبحنا نخاف على كل شيء.. ومن أي شيء.. حتى أوقات سعادتنا

نخشى عليها من النهاية.. وتضيع منا وسط دوامات الخوف والترقب.. لماذا لا يعيش الإنسان لحظته؟ يفكر فيها فقط.. ويعيشها بكل مشاعره وأحاسيسه.

وإذا كنا نترك للأقدار دائما الحق فى تشكيل حياتنا وصياغة أعمارنا.. لماذا لا تعطى للأقدار نفس الحق حينما نحب؟ إننا نشعل الشرارة ونخاف النيران.. ونبدأ الطريق ونخشى نهايته.. ونعيش لحظات السعادة ويسكننا شبح مجنون اسمه الحزن.

إننى أفضل أن أعيش معك وأموت فى كل يوم ألف مرة شوقا وحبا وصراعا.. لا أتمنى أبداً أن أجد نفسى بعيداً عنك حيث الموت الأبدى.. والصمت الدائم..

نحن نلتقى.. ونفترق.. ونهرب ونجىء ونشتاق ونختلف.. ورغم كل هذا التناقض المخيف فى مشاعرنا فإننى أرى أن الحياة بك أجمل.. وأن العمر معك أحلى.. وأن السعادة بيننا لها مذاق خاص لا يعرفه أحد غيرنا.

الموت الحقيقى أن نهرب من أقدارنا.. وقدرى أن أحبك.. ولن أترك الزمان القبيح يغير ملامحنا ويستبيح أحلامنا.. ويلقى بنا فى شواطئ الضياع..

قالت: ولكن النهاية قادمة.. فماذا نفعل حينما نجد أنفسنا فى منتصف الطريق، وعلى كل منا أن يودع الآخر؟

قلت: لو كنت أستطيع أن أعيش معك دقيقة واحدة أكثر فلن أترك هذه الدقيقة تضيع منى.. وإذا كان الفراق قدرنا.. فهو قدر كل الأشياء، ولن نكون وحدنا ضحاياه لأن لكل شيء نهاية.. ومعنى قرارك هذا أن يقف كل منا ينتظر دوره فى الموت مادامت نهاية الحياة طبيعة الكون ومصير البشر .. إننى أحبك اليوم ولا يعنينى غدى.. لأننى أضمن يومى.. ولا أضمن غدى.

أنا على يقين من أننى سأظل أحبك حتى آخر قطرة فى دمى.. ولكننى للأسف الشديد.. أملك قلبى.. ولا أملك عمرى.. وإذا كانت طبيعة الأشياء أن لكل شيء نهاية، فلا ينبغى أن تشغلنا النهايات عن البدايات.. وساعات الحزن عن ساعات الفرح.. وأيام الفراق عن أيام اللقا..

أنا أحبك اليوم وهذا يكفينى لأننى لا أراهن على شيء لا أملكه.. وأنا لا أملك الغد.. أنت الآن بين يدى.. وأنا لك بكل ما فى أعماقى من نبض ومن مشاعر.. وهذا يكفينى فى هذه اللحظة..

قالت: أنت تريد اللحظة.. وأنا أريد العمر..

قلت: وأنا أعطيك ما أملك.. ولا أستطيع أن أمنيك بما لا أملك.. اللحظة فى يدى فهى ملكى.. والعمر فى أيدى القدر.. وأنا لا أملك قدرى.. نستطيع أن نبنى أحلاما كثيرة على امتداد زمان طويل..

ولكنها ستبقى مجرد سطور فى الهواء كتبناها على سطح المياه.. قد نراها.. وقد تبقى فى أعماقنا مجرد أحلام زارتنا ورحلت..

الأحلام رحلة بحرية جميلة ولكنها رحلة بلا شاطئ.. وأنا لا تعنينى نهاية الأشياء.. لا يعنينى متى يرسو الملاح على الشاطئ؟ فقد يموت قبل أن يصل.. ولكن الذى يعنينى أن أعيش العمر فى عينيك.. وأن تكون السماء صافية، والموج هادئا والزمان جميلا.. فإذا وصلنا إلى الشاطئ، وامتد العمر بنا سنعيش زمانا أجمل.. وإذا لم نصل إلى الشاطئ، فيكفينا أن الرحلة كانت جميلة.. حتى وإن كانت بلا شطآن!

من العبث أن يبيع الإنسان يومه من أجل زمان قادم قد يجىء.. وقد لا يجىء.. ومن الخطأ أن نضع نهاية لأشواقنا، لأننا سوف نفترق يوما.. أنا الآن أملك إحساسى وأنا صادق فيه.. ولكننى لا أملك قدرى ولا عمرى.. من العدل أن نحاسب الإنسان على إحساسه.. ومن الظلم أن نحاسبه على قَدَرِه.. فهو قد يملك الإحساس ولكنه لا يملك العمر.

❋ ❋ ❋

لمن نعطى العمر؟

قالت: ماالذى غيرك منى؟. أراك أحيانا أبعد ما تكون.. ظلال كثيرة أخذت مكانها بيننا.. وأصبحت أراك بعيدا جدا.. فلم تعد ذلك الإنسان الذى أحببته يوما.. تغيرت فى كلامك فى طباعك.. حتى فى جنونك تغيرت.. كيف أستعيدك مرة أخرى؟.

قلت: غيرتنى أشياء كثيرة.. تكسرت فى أعماقى أيامنا الجميلة.. وذكرياتنا وأمانينا.. والسبب فى كل هذا أنك إنسانة تحملين أكثر من قناع.. وأنا لا أجيد لعبة الأقنعة فى الحب.. فالإنسان قد يمارس أحيانا لعبة الأقنعة فى حياته العادية.. بينما يحاول أن يواجه تلك المواقف المتناقضة مع الناس فيجامل أو يهاون أو يصمت.. ولكن من الصعب جدا أن نرتدى الأقنعة ونحن نحب.. ولقد رأيت على وجهك الوديع منذ عرفتك أكثر من قناع.. وجدتك العاشقة الهائمة.. والنمرة

المتمردة المفترسة.. ورأيت فى عينيك البريق الجميل.. والعناد البغيض.. ورأيت فى يديك ذلك القفاز الحريرى الناعم وعليه بعض نقاط دم! ولا أستبعد أن يكون فى أرشيف أيامك أكثر من ضحية.. أنا لا أحب المرأة التى تجيد لعبة الأقنعة.. إنها تذكرنى بالحرباء التى تغير لون جلدها حتى تلتهم الفراشات الجميلة.

قالت: ولكننى حاولت أن أعيش معك بكل تناقضاتى.. فأنا إنسانة متمردة بطبعي.. متقلبة المزاج.. «مودية» فى حياتى وبين الناس.. لا أستطيع أن أخفى ذلك..

قلت: إننى أحترم تناقضات الإنسان.. وصراحة المتغير.. ونحن بشر لنا حالاتنا.. ولكننى لا أحب أن أرى على وجه من أحب قناعا زائفا يقول غير يعطى.. لا أحب أن أسمع كلمات جميلة وفى الأعماق رغبة فى الانتقام. لا أحب امرأة تجيد لعبة اللف والدوران ومن أين تنقض على فريستها.. إننا فى الحب نسلم كل شيء لمن نحب.. نعطى العمر.. والحلم والشباب ولابد أن نضع الأشياء فى أماكنها حتى لا نندم.. لابد أن أشعر أننى وضعت عمرى فى مكان أمين.. وغرست حلمى فى أرض طيبة..

من الخطأ أن نغرس الأشجار فى أرض مالحة.. فمهما كانت الشجرة جميلة وقوية فإن الملح أقوى من كل الجذور.

أحيانا أشعر معك أننى لا أحب امرأة، ولكننى أروض نمرة.. وأنا لا أجيد التعامل مع الحيوانات المفترسة.

قالت: ولكننى أحببتك.

قلت: وأنا أيضا أحببتك.. إلا أننى أجد الآن نفسى فى غير مكانى.. وأعطى العمر لمن لا يستحق هذا العطاء.. كان إحساسى بالأمان أجمل ما أشعر به معك.. وقد خاصمنى هذا الإحساس.. أسوأ الأشياء أن يتلفت الرجل حوله وهو يعيش لحظة حب صادقة.. وأنا أتلفت كثيرا حولى وأنا معك.

قالت: هل نفترق؟..

قلت: لقد افترقنا منذ زمان بعيد.. عندما تقطعت تلك الخيوط الرقيقة التى جمعتنا.. وتوارت تلك الأحلام التى نسجناها بأجمل أيام العمر.. كل الذى بقى بيننا الآن شىء من الذكرى.. لقد اعتدت عليك فى أشياء كثيرة.. وأسوأ الأشياء فى الحب عاداته الصغيرة التى تصبح جزءا عزيزا من عمرنا.. وأنا أحاول الآن أن أتخلص من هذه الأشياء الصغيرة.

ياصديقتى أنت امرأة جميلة.. وحديقة واسعة فيها الثمار والظلال والجمال.. ولكن أشجارك الخضراء تخفى فوق أغصانها كثيرا من الثعابين!

❋ ❋ ❋

الرجل القناص

قالت : انتشرت الأن ظاهرة الرجل «القناص» والمرأة «المتربصة» وكلاهما يحاول أن يقتنص فرصة أو يحصل على أى شىء سريع.. تجد الرجل جالسًا يحاول أن يرمى شباكه حول فريسته.. وتجد المرأة متربصة تحاول أن تلقى شباكها على ضحيتها.. وللأسف الشديد، إننا نشاهد ذلك بين مستويات اقتصادية عالية من الناس.. فماذا جرى للرجال والنساء.. وما هى أسباب مثل هذه الظواهر؟

قلت: حينما يغيب الحب الحقيقى يحاول الإنسان إيجاد بدائل سلوكية لكى يقنع نفسه بأنها نوع من الحب.. ولأن الحب أصبح ضيفا عزيزا، ولأن هناك نوعيات من الناس أعماها المال عن حقيقة مشاعرها فإن هؤلاء يحاولون استبدال الأشياء.. فيتصورون أن ذلك حب.

والرجل القناص عادة رجل فقد الثقة فى نفسه.. فهو رجل ضعيف يحاول أن يبدو قويا.. وهو رجل مهتز يحاول أن يبدو متماسكا، إنه نوع من البشر يمارس حالة من حالات الضياع اللذيذ.. وكذلك المرأة تحاول أن تعوض نفسها عن خسائر لا تعوض فتصور أن إحساس القناصة داخلها يمكن أن يجعلها راضية رغم أن سخطها الحقيقى على نفسها وليس على الآخرين.

والإنسان عادة يلجأ إلى مثل هذه التصرفات فى مرحلة حرجة من العمر.. إنها المرحلة التى يخبو فيها البريق ويسافر الحلم وتتساوى فيها الأشياء.. ولهذا يحاول أن يقتنص فرصة أو يعيش لحظة أو يشعر أنه مازال مرغوبا فيه.

والرجل السوى لا يقبل أن يكون قناصا.. لأن التوازن فى الشخصية والثقة بالنفس والإحساس بالكرامة يجعله يرفض مثل هذا السلوك.. إن الإنسان السوى لا يحب اللف أو الدوران ويعتبر الوضوح شيئا أساسيا فى شخصيته وتكوينه.. وإذا كانت الثعالب تحب اللف والدوران وتتلون وتنام وتصحو حتى تحصل على فريستها فإن الأسود تكون عادة واضحة فى سلوكياتها عداء وحبا.

وكذلك المرأة الواثقة المتزنة لا تقبل أن تلعب دور «الحرباء» التى تجلس فى مكان بعيد وتلون جلدها وتنقض على فريستها.. وإذا كان

فى الحيوانات أنواع انتهازية ومتربصة فإن فى البشر أيضا توجد نفس الأنواع..

والرجل القناص إنسان مكروه من الآخرين.. إنه يحاول أن يكون كبيرا رغم أنه يشعر فى أعماق أعماقه أنه صغير جدا.. ويحاول أن يبدو صاحب خبرة وتجارب وهو عادة إنسان ساذج سرقه العمر وضحكت عليه الأيام فحاول أن يعيش العمر فى غير أوانه وأن يجرب الأشياء فى غير مواسمها.

والمرأة القناصة إنسانية تحاول أن ترى ضياعها فى وجوه الآخرين.. إنها إنسانة مهزومة ولكنها تحاول أن تمارس طقوس الانتصار فتثير حولها ضحكات الآخرين وسخريتهم.

قالت: وكيف يتجنب الإنسان ذلك كله؟

قلت: أن يثق فى نفسه أولا.. والثقة فى النفس لا تعنى الغرور أو التعالى ولكنها تعنى أن يدرك الإنسان قدر نفسه فيرفض أن يراها فى غير مكانها.. والثقة فى النفس تجعل الإنسان متوازنا فى كل شىء.. ولهذا لا يقبل أن يسرق لحظة لأن مقياسه الحقيقى للأشياء هو الزمن.. وهو لا يقبل أن يكون قناصا يلتهم فريسته.. لأن الفارس الحقيقى لا يحب أبداً أن يكون مجرد بهلوان لكى يصل إلى غاياته.

والرجل القناص رجل لا يعرف الحب لأن الحب الحقيقى لا يمكن

أبداً أن يكون فرصة عابرة.. إنه عمر طويل أجمل ما فيه المعرفة والإحساس والتواصل..

ولهذا نجد أعدادا كبيرة من الرجال الذين مارسوا اللعب البهلوانية يجلسون على رصيف الحياة.. الوجوه متعبة.. والنفوس ضائعة.. والقلوب عاجزة.. وتتذكر الرجل القناص داخل كل واحد منهم فتجد تاريخا طويلا من الخبرات ليس فيه ذكرى واحدة يمكن أن يعود إليها الإنسان.. ولا يوجد مع الرجل القناص غير أطلال عمر ورصاصات فارغة وبندقية ملوثة بدماء الضحايا.. وقبل هذا كله تجد القلب الكسير الذى مات الإحساس فيه.

وتحاول أن تراجع تاريخ الرجل القناص فلا تجد فى دفتر أيامه غير مجموعة انتصارات زائفة تذكرنا بثوار هذا الزمان.. الرجل القناص يبدو غنيا ولكنه المفلس الحقيقى.. ويبدو قويا وهو أضعف من ضعيف.. ويبدو صاحب تجربة وهو يذكرنا بصاحب محلات العطارة الذى يحاول أن يجد علاجا لكل الناس.. رغم أنه عجز عن علاج نفسه..

❄ ❄ ❄

حكاية القلب المشاغب

لم يعد القلب يحتمل انكسارات زماننا القاسى.. أصبح جبروت هذا الزمان أكبر من احتمال قلوبنا وأعنف من قدرتنا على المقاومة..

أحاول أحيانا أن أهرب.. ولكن إلى أين.. وكيف.. ومتى؟ تساؤلات كثيرة تحاصر الإنسان، إذا هرب من العمل فكيف يهرب من الشارع؟ وإذا هرب من الشارع فكيف يهرب من سذاجة التليفزيون.. وقبل هذا كله كيف يهرب من نفسه؟!

كنت أحيانا أتصور أن البعد عن الأشياء هو أفضل الوسائل لتجنبها.. وبدأت أبتعد.. ابتعدت عن الناس أحيانا.. وعن أشياء كثيرة يمكن أن ترهقنى نفسيا.. ابتعدت عن مناطق كثيرة يسعى الجميع إليها.. ولكننى اكتشفت أن الدائرة أكبر بكثير مما أتصور.. تصورت أن

المستنقع هو ما أراه واكتشفت أن حجم المستنقع الحقيقى هو ما لا أراه..

تصورت أن ما أراه بعينى من فساد الذمم والأخلاق هو أقصى ما وصل إليه الحال.. واكتشفت أن الفساد أكبر بكثير من قدرتى على الإدراك.

وأسأل نفسى، ماذا يفعل إنسان كان قدره أن يحمل قلبا ضعيفا لا يستطيع مقاومة كل هذه الأشياء..؟ ماذا يفعل إنسان يحاول أن يبقى واقفا بعد أن انحنى الجميع وأن يواجه بعد أن هرب الجميع وأن يسبح ضد التيار حتى ولو غرق؟..

فهل من الذكاء أن يغرق؟.. وهل من الفطنة أن يترك القلب الضعيف لكل هذه الوجوه القبيحة؟.. وهل من العدل أن نحاول تحلية البحر مهما كان حجم الماء العذب بين أيدينا؟.. سوف يبقى الملح ملحا حتى ولو جمعنا له أنهار الدنيا.. وسوف يبقى الفساد فسادا حتى ولو عاد آلاف المصلحين مرة أخرى.

فماذا أفعل مع قلب يعاندنى ويحملنى أكثر من طاقتى؟. أقول له أحيانا إنك لن تصلح الكون.. ولن تستطيع أن تغير الأشياء كما تخيلت.. وأراه يرد علىّ وهو واهن حزين إنك لن تستطيع معى صبرا.. وأقول له يا أيها القلب المشاغب العنيد ماذا يساوى الصبر والدنيا رماد.. وأراه ينظر نحوى ويقول.. لا تطلب منى أن أشرب من بحار الملح.. فأنا لا أستطيع.. ويرهقنى قلبى معه..

فى أحيان كثيرة أقصر فى واجبات كثيرة.. إذا رأيت صديقا مريضا لا أبالغ إذا قلت إننى أمرض معه.. وإذا شاركت فى جنازة أعود منها وفى قلبى أحزان الدنيا.. وإذا سمعت خبرا سيئا أجد تلالا من الهموم على أنفاسى..

وأجد نفسى أحيانا هاربا من الناس.. ولكننى أهرب منهم إليهم.. وأهرب أحيانا من حزنى.. وأراه يطاردنى.. مرات عديدة أحاول أن أتمرد على هذا الحزن.. وأعلن العصيان على قلبى.. وأتمنى لو كان فى قلبى شىء من البلادة.. لو أننى استطعت أن أعيش مثل بقية خلق الله أترك الأشياء على حالها..

أقول لنفسى أحيانا إن هذا القلب أرهقنا جميعا.. ارهقنا حينما أحب.. وجدناه شظايا تتناثر فوق بقايا الأيام!

وأرهقنا حينما حمل هموم الدنيا وتصور أن العمر رسالة وأن الحياة موقف لنا أو علينا.

وأرهقنا حينما داعبته الأمانى ولم تترك له إلا السراب.. ومازال قلبى المشاغب يعيش معى.. وإن كنا دائما على خلاف!

❄ ❄ ❄

الحب .. بين العمر .. واللحظة

قالت: ما الذي يؤكد قيمة معادن الناس؟ أحياناً نواجه بعض الوجوه التى يخدعنا بريقها الزائف، وكلامها المعسول.. نجرى وراءها.. ونتعلق بها.. ثم نكتشف أن ما كان بين أيدينا لم يكن أكثر من سراب.. إن زماننا يحمل أقنعة كثيرة ولذلك يحاول الإنسان أن يكتشف معادن الناس حوله ورغم الخبرات والتجارب نجد أنفسنا فى أحيان كثيرة وقد خدعتنا المظاهر الكاذبة.

قلت: لاشك أن لعبة الأقنعة تجعل الإنسان يشعر دائما بالخوف.. وإذا كان الإنسان يخاف على ماله وبيته فكيف لا يخاف على مشاعره ؟.. نواجه فى حياتنا أشكالا متعددة من الوجوه، ولهذا نحاول دائماً أن نكتشف الجميل من القبيح.. وهذا يحتاج إلى أشياء كثيرة..

وفى تقديرى أن الزمن من أهم العناصر التى نستطيع من خلالها أن ندرك مشاعر الآخرين.. إن الزمن هو الجانب الوحيد القادر على تعرية الأشياء وكشف غموضها.

هناك إنسان قادر على أن يحب اليوم فقط، ولكنه لا يضمن نفسه غداً.. وهناك إنسان يخلص للأشياء مادامت أمامه، فإذا رحلت أو رحل عنها انتهى كل شيء.. وهناك إنسان يعطى إذا أخذ.. ولا يمكن أبداً أن يعطى لأنه يحب العطاء.

ومثل هذه النماذج البشرية نصادفها فى حياتنا كل يوم.. ولذلك يجب أن نضع المشاعر فى مناطق الاختبار.. والزمن هو أصعب الاختبارات وأصدقها..

* فرق كبير بين إنسان أحبه وأجده بجوارى فى ليالى الأنس.. ولا أجده أبداً فى لحظة ضيق أو ساعة محنة.

* فرق كبير بين إنسان اعتاد أن يأخذ منى كل شيء ولا يشعرنى للحظة أنه يريد أن يقدم لى أى شيء!

* فرق كبير بين إنسان يذكرنى وأنا أمام عينيه، فإذا غبت يوما بحث عن وجه آخر يملأ الفراغ ويسد الحاجة.

ولذلك أرى نفسى دون أن أدرى أحاول أن أضع الآخرين فى مناطق الاختبار وأختار الزمن عادة مقياساً.. ربما أترك إنساناً فترة من

الزمن لكى أعرف إن كان سيحاول البحث عنى.. أم أنه وجد البديل.. أحاول أن أختبر مواقفه معى، فإذا وجدت أن الأمور عنده سواء، ابتعدت فى صمت.

إن الزمن هو المعيار الوحيد الذى أثق فى أحكامه، خاصة فى منطقة المشاعر.

وفى زماننا، ومع الزحام وتعدد الوجوه واتساع اهتمامات الناس يحاول الإنسان أن يبحث عن وجه صادق وسط هذا الزحام الزائف.. أنا لا أراهن أبداً على الكلام الجميل.. والعبارات الأنيقة والعيون اللامعة.. لأن هذه الأشياء تشبع لحظة من الوقت وسرعان ما تذوب الأشياء ويتوارى البريق.. ويحاول الإنسان البحث عن بريق آخر.. وكلام آخر..

وهؤلاء الجالسون على مائدة الانتظار دائماً تتكشف وجوههم الحقيقة أمام مقاييس الزمن.

نحن لا نخلص إلا لمن نحب.. ولا نتحمل إلا من نحب.. ولا نعطى دائماً إلا من نحب! ولهذا إذا وجدنا هذه الأشياء فى شخص آخر، فعلينا أن ننتظر حتى تؤكد لنا التجربة أنه صادق فى مشاعره.. يستطيع الإنسان أن يدعى الحب لحظة، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يدعيه عمراً بأكمله.

ياصديقتى.. الزمن هو الذى يكشف لنا مشاعر الآخرين.. وهو أيضاً يكشف لنا عمق مشاعرنا.

أكذوبة العمر الطويل

قلت لها: لو عادت ليلى.. لتمنيت أن أكون أنا المجنون.

قالت: لاعادت ليلى.. ولا أنت المجنون.

قلت: كان زمانا جميلا..

قالت: كان زمان تخلف.. خيمة.. وجمل وأيام فقر وحاجة .. ولا أعتقد أن هناك من يحب فقره أو حاجته.

قلت: كان زمان راحة البال والهدوء والقناعة.

قالت: وماذا تقصد براحة البال؟ هذا كلام فارغ.

راحة البال أن تكون قادراً.

أن تملك الأشياء..

أن تشعر بالأمان المادى والنفسى والحياتى..

أن تجد فى جيبك ودفتر حساباتك وأرصدك ما يكفيك.

أن تحقق رغباتك كما تريد..

أن تجد أحلامك بين يديك. إذا دخل الفقر من الباب هرب الحب من الشباك.

نحن الآن نعيش فى أزهى وأجمل عصور التاريخ.. وأنت رجل متخلف.

قلت: سامحك الله ياصديقتى.

راحة البال عندى..

أن أقنع بما فى يدى.. وألا أنظر لما فى أيدى الآخرين.

قد يكون مالدى قليلا .. ولكنه بالقناعة يصبح أكثر من الكثير وقد يكون معى الكثير .. ولكنه بالجشع يصبح أقل من القليل.

راحة البال ياسيدتى أن أنام فى الهواء الطلق، ولاتحاصرنى أنفاس بقايا أجهزة التكييف وعادم السيارات واللوريات..

أن أضيء فى الليل شمعة وحيدة وأسمع على ضوئها أصوات العصافير العائدة إلى أغصانها.. وأن يتسلل ضوء الصبح إلى أعماقى فيطهرنى ويغسل عنى هموم الزمن..

ألا تحاصرني أصوات الطائرات، والسيارات، والأتوبيسات، والمدافع، وصرخات المسجونين، والكتل الخرسانية التي تخنق كل الأشياء حولي.

راحة البال أن أرى السعادة في عيون حبيبتي، وألا أفتح عيني على أشلاء القتلى في الصحف والتليفزيونات التي تشعرني أننا نعيش عصر المذابح الإنسانية..

راحة البال.. أن أقرأ في الصحف أن فقراء العالم قد شبعوا، وأن دكاكين الدمار أفلست وأغلقت أبوابها، وأن تجار السلاح دخلوا مستشفى الأمراض العقلية، وأن العالم القبيح أدرك قيمة الجمال بعد رحلة عذاب طويلة..

إن مجنون ليلى كان محظوظا بحبه لليلى..

فقد يمتلك الإنسان أرصدة الدنيا يشترى بها العقارات والمطارات والأراضي، ولا يستطيع شراء قلب. قد يملك الإنسان كل الأشياء ويعجز أن يمتلك قلب امرأة أحبها، ولم تحبه، وأرادها وهي لا تريده، فما أجمل أن تجتمع الإرادتان في لحظة إحساس صادق تساوي أرصدة الدنيا..

إن تعادلية «توفيق الحكيم» كانت على حق، فلن نأخذ من الحياة إلا بعض الأشياء، ولن نستطيع أبداً ومهما حاولنا أن نأخذ منها كل شيء.

فقد تعطينا المال.. وتسلب منا الصحة.. وتعطينا المجد وتسلب منا الطمأنينة.. وتعطينا الحب وتأخذ منا المال ونشعر أننا أغنى من كل أغنياء الأرض.. فالحب تاج على رءوس العشاق لا يراه إلا من لم يعرفوا قدره..

قالت: أنت تعيش فى زمان غير زماننا.. أنت لا تشعر بقيمة الأشياء التى بين يديك..

لا تشعر بقيمة الطائرة التى تختصر الزمن..

لاتشعر بقيمة الطبيب الذى ينقذ حياتك.

لا تشعر بقيمة التليفون الذى يوصلك فى كل لحظة بمن تحب، هذه كلها أشياء عظيمة خدمت الإنسان وساعدت على راحته.

قلت: أنا أحب مثلك كل هذه الأشياء، واعترف أنها خدمت الإنسان، وساعدت على راحته..

ولكن الطائرة تختصر لنا الزمن وما نختصره فى الطيران يضيع منا على الأرض فى هموم يومية ومتاعب تأكل أيامنا.

إننا نموت فى هذا العالم كل يوم ألف مرة..

وإذا كانت الطائرة تستقبلنا بالزهور فى رحلة صيف جميلة فهى أيضا تلقى القنابل فوق رءوسنا فتبدد أحلامنا وتغتال أمانينا..

إن الطبيب يعالج المرضى.. ولكن ماذا يفعل الطبيب فى أكوام الهرمونات والأسمدة الضارة والكيماويات التى يضعها الإنسان فى الشجرة لتعطيه ثماراً أكثر حتى ولو كانت هذه الثمار نوعا من السموم البطيئة.

وإذا كان التليفون الذى تتحدثين عنه يوصلنا بمن نحب فى أى وقت نشاء، فإن الأشواق ياسيدتى لا تحتاج لحرارة التليفون.. إن حرارة التليفون أحيانا تفقدنا حرارة الإحساس والمشاعر.. وأنا أفضل حرارة مشاعرى على حرارة تليفونك المزعوم.

قالت: أنا لست ليلى، ولا أتمنى أن أكون.. فأنا سعيدة بزمانى أعيشه كما أحب.

قلت: وأنا لا أستطيع أن أكون المجنون.. ولا أملك إلا أن أعيش زمانى مثلك.. وأن أحبك كارها..

قالت: تحبنى كارها.. أنا لا أريد حبك هذا..

أمامى العشرات غيرك فما أكثر الذين يتمنون حبى..

قلت: رسبت ياصديقتى فى أول امتحان..

فأنا لا أريد امرأة أعطيها قلبى لتتركنى فى أول محطة قطار وتعطى قلبها لشخص آخر..

وداعا يا أكذوبة العمر الجميل..

❄ ❄ ❄

عندما نحب ..

قالت: أيهما أفضل أن تُحِب... وتُحَب؟

قلت: شيء جميل أن يشعر الإنسان أنه محبوب من الناس.. أن يجد حوله قلوبا ترعاه.. أن يستريح إلى نفوس يطمئن إليها.. فالإنسان بطبعه وتكوينه يحب أن يجد الناس حوله.. وما أجمل أن يجد الناس بمشاعرهم وليس بأجسادهم فقط.

والإنسان أيضاً يشعر بقيمة أن يحب.. أن يجد نفسه فى إنسان آخر.. أن يستكمل دائرة مشاعره فيلوح فى الأفق ضوء خافت يتسلل إلى نفوسنا ونتعلم منه الأشواق والحنين والافتقاد والألم.. شيء عظيم أن يعرف الإنسان طعم الحب.. حيث الانتماء والعطاء والصدق والاكتفاء.. إنسان أحبه يملأ حولى كل هذا الكون.. وأراه الناس جميعاً.

وإذا كان من المهم أن يجد الإنسان حوله قلوباً تحبه.. وأن يشعر أنه يحب.. فلابد أن يُحِب ويُحب فى وقت واحد.. أكره الأشياء عندى هو مانسميه بالحب من طرف واحد.. لأن الأصل فى الحب أن يكون بين اثنين.. بين سالب وموجب لكى تكون هناك شرارة.. بين قلب وقلب لكى تكون هناك مشاعر.. أما ما يسمى بالحب من طرف واحد فهو يعنى أن يعطى الإنسان بلا مقابل.. أن يضىء للآخرين ويبقى وحيدا فى ظلمة أيامه.. أن يعطى العمر والقلب بينما هناك طرف آخر يعطى قلبه لشخص ثالث.

وقد يرى بعض الناس أن الحب من طرف واحد من أرقى أنواع المشاعر لأن الإنسان يعطى بلا مقابل.. وأنا أرى أن العطاء الذى يقابله صمت وجحود يترك فى الأعماق مرارة..

ولذلك فأنا أرى أن الحب يجب أن يكون بين قلبين يشعر كل منهما باحتياج شديد للآخر.. شخصان يذوبان فى شخص واحد.. إرادتان تتحدان فى لحظة توحد كونية لا يعرف الإنسان حدوداً لها.. يتجاوزان بها حدود الأشياء ويشعر كل منهما أنه خلق للآخر.. وأنهما إنسان واحد شاءت الأقدار أن ينشطر إلى جزءين..

فكيف بالله يكون الإنسان سعيدا وهو يحب إنساناً آخر لا يعرف عنه شيئا وربما كان قلبه مشغولا بمن يحب.

الحب نوع من التكامل.. والتكامل يقوم على شخصين وليس على شخص واحد..

قالت: وهل معنى ذلك أن يلغى الحب إرادة المحبين؟

قلت : من قال هذا ؟ فى اتحاد إرادة المحبين ينبت شىء جديد يخرج منه فهم متبادل بلا حوارات .. وإحساس متواصل بلا كلام .. وتدفق فى المشاعر بلا حسابات .. يشعر كل منهما أنه يتحدث بلسان الآخر ويفهمه دون أن ينطق .. ويراه وبينهما آلاف الأميال..

الحب تأكيد لفردية الإنسان وليس إلغاء لها.. حينما أجد نفسى فى شخص آخر وأتوحد معه يزداد يقينى بالأشياء.. وتصبح إرادتى أكثر صلابة، وإحساس أكثر عمقاً..

ما أجمل أن تتوحد المشاعر وتتفاعل لتصنع عالماً جديداً يتجاوز حدود الفرد إلى آفاق أبعد وأوسع وأشمل.. وهذا هو الحب.

قالت: ولكن الحب أعمى..

قلت: هذا مثل ساذج.. لأن الإنسان لا يرى من يحب بعينه فقط.. حينما يحب الإنسان يشعر أن كل شىء فيه أصبح عيوناً ترى هذا الحبيب.. فأى العيون يكذب.. القلب.. أما العيون.. أم الكلام.. أم اللهفة أو الأشواق.. أم الألم؟.. كل جزء فى كيان الإنسان يرى من

يحب.. فنحن لا نرى أحبابنا بعيوننا فقط.. كل جزء فينا يرى حينما نحب.

قالت: وهل يمكن أن تخدعنا مشاعرنا فيمن نحب؟..

قلت: عادة نترك هذه الأشياء للزمن.. إن الزمن هو الاختبار الحقيقى لمشاعر الناس.. هو الميزان الحساس الذى نعرف منه قيمة الأشياء بين أيدينا.. قد تخدعنا مشاعر طارئة أو لهفة زائفة أو لحظة جنون عابرة.. ولكن هذه المشاعر سرعان ما تنزوى وترحل مثل الضباب فى فصل الصيف.. تظهر الشمس فى السماء ويتساقط الضباب أمام حرارتها مثل أوراق الخريف.. أما الحب الحقيقى فهو أكبر من متغيرات الزمن ، ولذلك تمضى الأيام تحملها حقائب الزمن ويبقى الحب رغم أنف الأيام يحملنا فى كل الأماكن ويشاركنا كل الأزمنة.. قد تعبر على الإنسان نزوة عابرة وهذا ليس حباً.. ولكن الحب إحساس متكامل يصعب علينا أن نطبق عليه قواعد التشريح.. الحب حالة تحتوى الإنسان تماماً فلا يرى فى الكون شيئا أكبر ممن يحب.

❄ ❄ ❄

طوفان الأقنعة

قالت: كيف اكتفيت بأن تبنى الأحلام فى خيالك.. أجمل الأشياء أن يصبح الحلم حقيقة.. وأنا لا أتصور أن أرى أحلامى سرابا على وجه الأيام أطارده ويهرب منى.. ما أقسى عذاب النفس ونحن نجرى وراء أحلام ندرك أننا لن نلقاها مهما طال بنا السفر..

قلت: لا أعتقد أن الإنسان يمكن أن يقنع بالحلم وحده ولايحاول أن يترجمه إلى حقيقة.. أصعب الأشياء أن نرسم أحلامنا فوق الرمال وتجىء الأمواج لتحملها بعيدا.. ولهذا لابد أن يقترن الحلم بالإرادة.. فالحلم بلا إرادة وهم كبير.. والإرادة بلا حلم واقع ثقيل.. وكلاهما لا ينبغى أن يبتعد عن الآخر، إرادة الحلم.. وخيال الإرادة.

والأحلام ملك للناس جميعا.. إنها بنوك مفتوحة أمام الجميع

ليس فيها ضمانات ولا إجراءات ولاروتين كل إنسان يستطيع أن يأخذ منها ما يتناسب مع إرادته وقدرته ورغبته فى الحياة..

والأحلام لا تحملنا على أكتافها؛ لتصل بنا إلى مانريد.. إننا نحملها فى قلوبنا، إرداة قوية وعزيمة ثابتة.. ورغبة فى اقتحام المستحيل.

ومن السهل جدا أن يملأ الإنسان حقائب عمره بالأحلام الجميلة ويجلس على رصيف الأيام ويكتشف أنها غير قابلة للشراء أو البيع.. وأن الناس مع الوقت تهرب منه ومن أحلامه.. هؤلاء الكسالى الذين يجلسون على الطرقات يتسولون الأحلام أو يبيعونها لا يستحقون جائزة الوصول إليها.. الأحلام تريد شعوبا قوية وأناساً يحملون الحلم والإرادة.

قالت: وماذا عن أحلامك أنت؟

قلت: لا أنكر أننى رسمت للناس أحلاما كثيرة.. وفتحت أمام عيونهم ألف طريق.. ولكن هذا لا يكفى.. يجب أن أجد لديهم الرغبة الصادقة فى اقتحام المجهول وتحقيق الحلم.

أم أحلامى فأنا أعرف نفسى.. منذ سنوات بعيدة اتفقنا على مجموعة أشياء.. فاخترت أحلامى حلما حلما.. ولم أحاول أبدا أن أختار حلما غريبا على قدراتى وخيالى وإرادتى، ولهذا عشت قريبا من أحلامى.. ولا يعنينى بريق سلطة.. فلم أحلم بها يوما.. واكتفيت بأن

أكون سلطانا على نفسي وأن أمارس قوتي على رغباتي وليس على رقاب الآخرين.

لا يعنيني بريق المال إلا بما يكفيني ولهذا قنعت بما عندي، لا يعنيني بريق زائف لأنني دائما أحاول أن أبحث عما وراء الأشياء.. فإذا رأيت إنسانا طويل القامة نظرت تحت قدميه.. وإذا رأيت بريقا مبهرا حاولت أن أتفحص معالمه.. فما أكثر الأقنعة في حياتنا وما أكثر الأقزام العمالقة.

وأنا لدي يقين أن قيمتنا مهما اختلت مقاييس الأشياء ستظل في أنفسنا وليست في مقاعد نجلس عليها.. وأن غنانا في مواهبنا.. وأحلامنا في قدرتنا.

يجب أن يكون الإنسان نفسه حتى لو رفضه العالم كله.. فماذا يفيدني إذا حاولت أن أرضي العالم وأخسر نفسي..

كانت أحلامي دائما ألا أضلل نفسي فأعرف قدرها دون بخس أو زيادة.. وبنفس المقاييس أعرف أقدار الآخرين فلا أعطي الناس أكثر مما يستحقون ولا أبخسهم أشياءهم.

من هنا تعاملت مع أحلامي، قد تبدو قليلة ولكنها تكفيني.. وقد تبدو خارج سياق الزمن الذي نحياه ولكنها تعنيني.. أفضل عندي أن أنام وحيدا مع ضمير مرتاح.. من أن أنام وسط ضجيج مزيف أخفي فيه أخطائي وخطايا الآخرين.

أفضل عندى أن أقول كلمة حق حتى لو أغضبت، من أن أقول كلمة زيف ترضى الآخرين وأخسر معها نفسى.

ولكننى أشعر الآن بإفلاس شديد ولهذا أحاول أن أحافظ على ما بقى من العمر والأحلام والبشر.

حينما أنظر للأيام أجد الزمان يسرقنى.. ولهذا أحاول أن أخبئ أرصدتى من الأحلام حتى لا يسرقها الزمان منى.

حينما أنظر إلى من بقى معى من الناس، أشعر بإفلاس شديد ولكننى أقول لنفسى صديق واحد صادق أفضل من ألف صديق مزيف. يستطيع الإنسان الآن أن يجمع حوله آلاف البشر ولكنه لايرى فيهم جميعا وجها صحيحا.. كلها أقنعة تحملها وجوه.. وفى كل ساعة ترى فوق الوجه ألف قناع.. وتختار بينك وبين نفسك أى الوجوه تصدق.. وأى الأقنعة تعرف.

ولا يبقى لك وسط هذا الضجيج شيء غير نفسك.. حاول أن تنجو بها وسط طوفان الأقنعة وإذا نجوت بنفسك نجوت بأحلامك، وإذا نجوت بأحلامك نجوت بعمرك.. وإذا نجوت بالعمر فى هذا الزمان فهذا أجمل الأشياء..

إياك أن يخدعك طوفان الأقنعة.

❄ ❄ ❄

إنما الناس .. عطور..

كلما شاهدت زجاجة عطر رأيت فيها إنساناً.. لأن البشر يشبهون تماما أنواع العطور.. هناك عطر رخيص مثير وكاذب.. وهنا إنسان يحمل نفس الصفات.. تراه دجالا يثير حوله الغبار فى كل شىء رغم أن فى أعماقه مسحات واسعة من القبح والزيف والكذب..

وأرخص أنواع العطور أكثرها إثارة.. هناك عطر رخيص، ما إن ينطلق فى الهواء حتى يملأ الكون ضجيجا.. بعد دقائق تحاول أن تبحث عن أى شىء بقى منه.. ولا تجد غير الرماد..

وهذا العطر الرخيص يشبه بعض الناس.. أحيانا يقابلك شخص ما تبهرك كلماته.. وتثيرك آراؤه .. وتحلق معه فى آفاق واسعة من الخيال.. وسرعان ما تكتشف أن ما سمعت وما رأيت ليس أكثر من

أسطوانة محفوظة.. يرددها صاحبها مثل الببغاء، ولو حاولت أن تقاطعه أو تجادله أو تستفسر عن شيء مما يقول اكتشفت حجم جهله وادعائه.

وكان لنا أصدقاء لعبوا يوماً في السيرك السياسي وكنت تحاول أن تناقش أحدا منهم في قضية ما ولا تجد غير كلام محفوظ يثيرك بخياله.. ولكن إذ حاولت أن تناقش هذا الكلام اكتشفت أنه مجرد شعارات يرددها صاحبها بوعي وبدون وعي.

وكما أن في العطور أنواعاً مزيفة مثل الناس تماماً.. تجد أيضاً أنواعاً نادرة أصيلة يبقى تأثيرها في أعماق الإنسان.. هناك أنواع من العطر تبقى معك أياماً.. وتعيدك أحياناً إلى أشياء نسيتها.. بعض أنواع العطر يعيد لك صور الماضي ويجسدها في عينيك.. ويتحول العطر إلى إنسان.. وترى في الإنسان عمراً.. وترى في العمر نبض الحياة وجمال الكون وصفاء الزمن..

والعطور النادرة أقوى من الزمن.. لأنها تبقى.. كذلك البشر .. فالإنسان الصادق المخلص الأمين يظل أكبر من إغراءات الزيف والدجل الرخيص.

ولهذا يبقى رافعاً قامته في كل شيء.. في فكره وسلوكه ومواقفه.. أحياناً تذكر حبيباً وترى إنساناً عزيزاً إذا تدفقت حولك رياح عطره.. وبعض الناس لا يغير أنواع عطره أبداً.. لأنها تحولت مع الأيام

إلى جزء من شخصيته.. وهناك من يستخدم العطر كما يستخدم أى شيء فترى معه كل يوم نوعاً جديداً.

وشخصية الإنسان تظهر فى أنواع عطره.. الأفاقون والكاذبون والآكالون على كل الموائد تجد حولهم عشرات الأنواع من العطور، إنهم يحاولون إخفاء روائحهم الكريهة وسط تلال من الروائح الكاذبة.. ولكن رائحتهم تكون دائما أقوى من كل محاولات الكذب.. إنها تطغى على كل شيء وتظهر الحقيقة واضحة رغم كل المحاولات.

ويجلس الواحد من هؤلاء وأمامه عشرات من زجاجات العطر ويحاول أن يهرب فيها.. ولكن رائحته الحقيقة تطارده.. وبعض الناس الأصلاء يحتفظ لنفسه بزجاجة عطر من نوع واحد.. إنه يحب الخصوصية فى كل شيء.. ولهذا لايرى نفسه إلا فى مرآة واحدة.. ولايرى نفسه إلا وجها واحدا.. ،لهذا يرفض أن يزيف نفسه تحت أى إغراء..

وهؤلاء الأصلاء الأنقياء لا يحبون ضجيج الأشياء.. إنه يكتفى فى الحب بامرأة واحدة.. ويكتفى بالسعادة فى شيء واحد يرى فيه نفسه.. ويكتفى بالمال الحال حتى ولو كان قليلاً.. ويكتفى بالبيت الصغير مادام نظيفاً.. ويكتفى بالعمر القليل مادام مثمراً.. ويكتفى بمشاعره الصادقة ولو كانت بسيطة عن قصور الزيف والادعاء.. ولهذا يسنخدم عطراً واحداً..

وإذا كانت زجاجة العطر حصاد عشرات الزهور فإن حصاد عمر الإنسان أيام قليلة يعيش عليها.. هذا العمر الطويل لا يبقى منه فى داخلنا إلا مجموعة ذكريات تأخذ مكانها فى قلوبنا ولا ترحل.

وعندما أجد أمامى زجاجة عطر أحاول أن أسترجع تاريخها.. كم عدد الزهور التى نزفت دماءها لتملأ هذه الزجاجة؟ وكم ينزف الإنسان أحيانا من دمائه ويعطى أجمل سنوات العمر من أجل حلم أو موقف أو حبيبة.. الإنسان زجاجة عطر بشرية.. وزجاجة العطر إنسان يحمل قلباً.. وكلاهما، العطر والإنسان، له عمر مكتوب لن يعيش بعده لحظة واحدة..

وإذا كان جبران يقول إنما الناس سطور كتبت لكن بماء.. فالحقيقة أن الناس عطور، لكن صنعت بدماء.. فالعطر دماء زهور.. والعمر دماء بشر.. ولهذا أحزن كثيرا كلما رأيت زجاجة عطر فارغة ملقاة على الرصيف.. أو رأيت إنساناً محمولاً على الأعناق.

❄ ❄ ❄

مؤلفات الشاعر
فاروق جويدة

أوراق من حديقة أكتوبر «ديوان شعر» ١٩٧٤ .

حبيبتى لا ترحلى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٥ .

أموال مصر كيف ضاعت «اقتصاد». الطبعة الأولى-١٩٧٦.

ويبقى الحب «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٧ .

وللأشواق عودة «ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٧٨ .

فى عينيك عنوانى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

الوزير العاشق «مسرحية شعرية» الطبعة الأولى ١٩٨١ .

بلاد السحر والخيال «أدب رحلات» الطبعة الأولى١٩٨١.

دائما أنت بقلبى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨١ .

لأنى أحبك «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨٢ .

شىء سيبقى بيننا «ديوان شعر» ١٩٨٣ .

طاوعنى قلبى فى النسيان «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨٦.

لن أبيع العمر « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٨٩ .

زمان القهر علمنى « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٠ .

كانت لنا أوطان « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩١ .

آخر ليالى الحلم « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٣ .

قالت « خواطر نثرية » الطبعة الأولى ١٩٩٠ .

شباب فى الزمن الخطأ الطبعة الأولى ١٩٩٢ .

دماء على ستار الكعبة «مسرحية شعرية» الطبعة الأولى ١٩٨٧.

الخديوى « مسرحية شعرية » الطبعة الأولى ١٩٩٤ .

فاروق جويدة « المجموعة الكاملة ».

ألف وجه للقمر « ديوان شعر » الطبعة الأولى ١٩٩٦

عمر من ورق « خواطر نثرية » الطبعة الأولى ١٩٩٧

قضايا ساخنة جداً الطبعة الأولى ١٩٩٧

ليس للحب أوان- الطبعة الأولى ١٩٩٧.

فهرس

الموضوع — الصفحة

رقم الإيداع ٨٦١٤ / ٩٧

I. S. B. N. 977 - 215 - 235 - 5





حين يجئ الحب لا يستأذن أحدا ولا يطلب تصريحا بالدخول .. إنه لا يعرف جوازات السفر .. ولا غرف التفتيش .. ولا بوابات الحراسة .. وقد يعيش الإنسان عمرا كاملا ولا يعيش لحظة حب صادقة .. فالحب هو الضيف الوحيد الذى يدخل أعماقنا بدون طقوس أو سؤال.

ولكن الحب فى زماننا تغيرت أشكاله ، فاللحظات العابرة والمشاعر الطائشة والمراهقة المتأخرة يسمونها حبا .. رغم أن الحب هو الشئ الوحيد الذى لا يحتاج لأى مسميات لأنه أكبر من كل الأسماء.

الثمن ٦٠٠ قرشاً